



بلاغة الحجاج في النثر العربي العباسي (قضية الشعوبية)

**The Eloquence of Polemics in Arabic Prose during the Abbasid
Period (Chauvinism)**

إعداد

يوسف محمد عبد الله عبده

إشراف

أ. د محمد حسين عبيد الله

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في اللغة العربية وآدابها

عمادة البحث العلمي والدراسات العليا

جامعة فيلادلفيا

الفصل الدراسي الصيفي 2015/2016

قرار لجنة المناقشة

بلاغة الحجاج في النثر العربي العباسي

(قضية الشعبوية)

إعداد الطالب

يوسف محمد عبد الله عبده

إشراف الأستاذ الدكتور

محمد حسين عبيد الله

نوقشت هذه الرسالة وأجيزت بتاريخ: 18 / 8 / 2016

التوقيع	أعضاء لجنة المناقشة	
	أ.د. محمد حسين عبيد الله أستاذ الأدب والنقد، جامعة فيلادلفيا	مشرفاً ورئيساً
	د . غسان إسماعيل عبد الخالق أستاذ مشارك، النقد العربي القديم، جامعة فيلادلفيا	عضواً
	د . عمر فارس الكفلاوين أستاذ مساعد، الأدب العربي القديم، جامعة فيلادلفيا	عضواً
	د . حسام مصطفى اللحام أستاذ مشارك، البلاغة العربية، جامعة الزيتونة	عضواً خارجياً

تفويض

أنا الطالب يوسف محمد عبد الله عبده ، أفوض جامعة فيلادلفيا بتزويد نسخ من رسالتي للمكتبات أو الهيئات أو الأشخاص عند طلبهم حسب التعليمات النافذة في الجامعة.

التوقيع :

التاريخ : 2016/ 8 / 18

الإهداء ...

إلى روح والدي الطاهرة في الملكوت الأعلى.

إلى قيس النور و العطاء الربّاني ، والدتي أطال الله عمرها.

إلى الزوجة الصالحة الصابرة نادية

إلى جميع أهلي و أفراد عائلتي.

إلى أستاذي المشرف مع بالغ امتناني و عظيم تقديري.

إلى كل من جعل العلم محبة و قبلة ، و أضاء شمعة في دروب طالبيه.

إلى كل هؤلاء أهدي ثمرة جهدي وفاء و امتنانا

الباحث

يوسف محمد عبده

الشكر والتقدير

﴿ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ۚ أَشْكُرْ أَمْ أَكْفُرُ ۚ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾

النمل (40) .

إلى كل الذين ساعدوني ولو بكلمة ، بداية من أستاذي ومشرفي الأستاذ الدكتور : محمد حسين عبيد الله ، الذي أرهقته وأتعبته معي فمне السماح ومني الشكر والعرفان والتقدير .

إلى الأصدقاء والزملاء والأساتذة وكل الأشخاص الذين أسهموا في إنجاز هذا العمل وإخراجه إلى النور، فلهم تحية شكر و عرفان ...

وأشكر لجنة المناقشة على جهدهم المبذول بالاطلاع على محتوى الدراسة وتقديم النصائح الثمينة حتى تخرج بأفضل صورة ممكنة.

كما أشكر أساتذتي، أعضاء الهيئة التدريسية في قسم اللغة العربية وآدابها الذين تعلمت منهم في مرحلة الدراسة وأثناء إعداد هذه الرسالة، فلم ييخلوا عليّ بالتوجيه والمساعدة ، جزاهم الله كل خير.

قائمة المحتويات

الموضوع	الصفحة
قرار لجنة المناقشة	ب
تفويض	ج
الإهداء	د
شكر وتقدير	هـ
قائمة المحتويات	و
الملخص باللغة العربية	ز
المقدمة	1
التمهيد	7
مفهوم الحجاج	8
البلاغه والحجاج	11
تطور الحجاج عند العرب	13
مفهوم الشعوبية	15
الفصل الأول: خطاب الحجاج في النثر العربي (قضية الشعوبية)	18
المبحث الأول: بنية الحجاج وأركان العملية الحجاجية	21
المبحث الثاني : آليات الحجاج في قضية الشعوبية	24
المبحث الثالث : أنواع الحجاج وصورها.	37
الفصل الثاني : الحجاج (دراسة أسلوبية)	46
المبحث الأول : البنية الصوتية للنصوص الحجاجية .	47
المبحث الثاني : معجم الحجاج .	56
المبحث الثالث : التراكيب الحجاجية .	59
المبحث الرابع : الروابط الحجاجية .	70
المبحث الخامس : أنماط بلاغية وأسلوبية أساسية .	75
الخاتمة	78
قائمة المصادر والمراجع	80
الملخص باللغة الإنجليزية	86

ملخص

بلاغة الحجاج في النثر العربي العباسي (قضية الشعوبية)

إعداد الطالب

يوسف محمد عبد الله عبده

إشراف الأستاذ الدكتور

محمد حسين عبيد الله

تناولت هذه الدراسة بلاغة الحجاج ، الذي يعدّ آلية لمعالجة النصوص، تفنن أهل البلاغة في نسج خيوطه .

ومن القضايا التي ظهرت في النثر العباسي القديم - أيام الصراعات المذهبية الفكرية - " قضية الشعوبية "، والتي حاول الأدباء و البلغاء الدفاع فيها عن العرب وثقافتهم من منطلق حجاجي مناظراتي بهدف إقامة الحجة والبرهان والدليل على خصومهم .

وقد جاءت مادة هذه الدراسة في تمهيد وفصلين وخاتمة؛ ففي التمهيد عرّفت بالحجاج عند اللغويين والأصوليين وتطوره الدلالي عند العرب، كما بيّنت باختصار مفهوم الشعوبية وأصولها وأهم مطاعنها ضد العرب .

وفي الفصل الأول وضّحت البنية العامة وأركان العملية الحجاجية في قضية الشعوبية وذكرت أن الحجاج لابد له من طرفين أو فريقين يحاول كل طرف التدليل على دعواه من خلال زيادة البراهين والأدلة، فجعلت الطرف الأول الجاحظ وابن قتيبة والطرف الثاني الشعوبية ومثلت على ذلك من خلال كتاب العصا للجاحظ ورسالة العرب لابن قتيبة، ثم انتقلت إلى أهم الآليات الحجاجية وأبرزها في الرد على مزاعم الشعوبية، واختتمت هذا الفصل بأكثر أنواع الحجاج بروزاً في " قضية الشعوبية " وحللت أمثلة عليها من خلال النصين المذكورين .

وأما الفصل الثاني فقد كان دراسة تحليلية أسلوبية تهدف إلى تحليل ظاهرة الحجاج في قضية الشعوبية، بدأت بالبنية الصوتية للنصوص الحجاجية، وانتقلت للكلمة المعجمية، والتركيب الحجاجي، وكذلك حتى وصلت إلى الروابط الحجاجية. وانتهى البحث بخاتمة موجزة تجمل أهم نتائجه وخلصاته.

الكلمات المفتاحية : النثر ، الحجاج ، الجاحظ ، ابن قتيبة ، الشعوبية ، العصر العباسي .

المقدمة

برز الاهتمام بالحجاج في السنوات الأخيرة لدى الدارسين، وظهر ذلك من خلال الدراسات والأبحاث التي خصصت له، بل صار الحجاج جزءاً من برنامج الناس اليومي فهو يتداخل في جميع أشكال الحياة المختلفة ، فنراه حاضراً بقوة في كل أشكال العلاقات الإنسانية. ومن المعروف أن العصر العباسي شهد كثيراً من كثرة الجدل والاحتجاج لكثرة المذاهب والفرق الفكرية، التي ظهرت في تلك الآونة الزمنية التي كان من شأنها نشر ثقافة الجدل والمحاورة، وكان لظهور الشعوبية بين أوساط العرب سبب قوي في جعل ذلك الزمان زمن الجدل والاحتجاج؛ لما جاءت به من أفكار ومطاعن ألصقتها بالعرب ومحاولتها الدائمة التقليل والتصغير من شأن العرب .

والعرب حالهم كحال أي أمة حاولت الدفاع عن ثقافتها وهويتها بطرح الأفكار وتوظيف الحوار والجدل بغرض الإقناع والتأثير، كما تجلّى ذلك في قضية الشعوبية عند الجاحظ وابن قتيبة .

ولهذه الأسباب وغيرها أثرت الخوض في هذا الموضوع ومحاولة الكشف عن خباياه، والوقوف على أهم سماته وأنواعه، كما أثرت أن أوضحه من خلال نص تراثي وهو " كتاب العصا للجاحظ " و " رسالة العرب لابن قتيبة " لما يمتلكان من خصوصية، تجعلهما مجالاً خصباً لهذا الطرح، وحاولت قراءة هذه النصوص بالاعتماد على آليات الحجاج البلاغي. لذا جاءت هذه الدراسة، محاولة إبراز وإظهار أهم أنواع الحجاج وأساليبه وآلياته من خلال نص (كتاب العصا) للجاحظ ، ونص (رسالة العرب) لابن قتيبة، كما بيّنت باختصار مفهوم الشعوبية وأصولها وأهم المطاعن والمزاعم ضد العرب.

وبالرغم من كثرة اهتمام الدارسين لنصوص الجاحظ وابن قتيبة، إلا أنني لم أعثر على دراسة متخصصة تعرض نصوص الجاحظ وابن قتيبة وتحللها فيما يتعلق بمسألة الشعوبية من منطلق حجاجي، يتم من خلالها الكشف على أهم أنواع الحجاج وأساليبه وآلياته .

وقد جاءت هذه الدراسة لتغني جهوداً سابقة عنيت بدراسة الحجاج ، ومنها :-

- دراسة الدكتور محمد العمري، (2002). في بلاغة الخطاب الإقناعي - مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية في القرن الأول نموذجاً، ط1، افريقيا الشرق، الدار البيضاء .

يركز العمري في هذا الكتاب على إشكالية الخطابة العربية في مرحلة متميزة من عمرها الحضاري، وبالذات في مرحلة تكون الأحزاب وبداية نشوء المذاهب الفكرية، والدور الذي لعبته بلاغة الإقناع في تلك المرحلة، وتوضيح فاعلية الخطاب في الجانب السياسي والاجتماعي والديني، فهو يعدّ دراسة تاريخية وتأصيلية لبلاغة الإقناع.

- دراسة عبد الهادي بن ظافر الشهري، (2004). استراتيجيات الخطاب - مقارنة لغوية تداولية، ط 1 ، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت.

ربط الشهري في كتابه هذا استراتيجيات الخطاب في كل مجالات الحياة، سواء في المجال السياسي أو الثقافي أو الاجتماعي أو الاقتصادي، فللمجتمع سياقات كثيرة تتطلب خطابات متنوعة، لكي ترضي جميع أهداف الناس، فذلك كانت الحاجة من اكتشاف الاستراتيجيات ومعرفة استعمالها وتكييفها بطريقة ملائمة مع الحاجة، واستخدم الشهري في هذه الدراسة المنهج التداولي، حتى يصل الآليات والمقاصد والأهداف المرجوة من الخطاب.

-دراسة سامية الدريدي، (2008). الحجاج في الشعر العربي القديم - من الجاهلية إلى القرن الأول الهجري / بنيته وأساليبه، ط2، عالم الكتب الحديث، جدارا للكتاب العالمي للنشر والتوزيع، الأردن.

عرضت الدريدي الشعر العربي القديم من زاوية حجاجية، وبيّنت من خلاله على أنواع وأساليب نظرية الحجاج المستخدمة في الشعر العربي القديم بمنظور حدائي، وحاولت مجتهدة ومستندة إلى نظريات الحجاج التي هي بالأصل نظريات حديثة وغربية بتطبيقها على مادة عربية في أساسها ومنشئها.

- دراسة حسين بوبلوطة، (2009)، الحجاج في الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي، رسالة ماجستير، جامعة لحاج لخضر، باتنة، الجزائر.

اجتهد الباحث في رسالته بالتعريف نظرياً بالحجاج من خلال المعجم والمصطلح، وذكر المرتكزات التي تقوم عليها الدراسة التطبيقية من رؤى منهجية للخطاب البلاغي واللغوي، وأفرد فصلاً تطبيقياً لآليات الحجاج البلاغي على الإمتاع والمؤانسة، واختتم رسالته بفصل تطبيقي آخر لكل آليات الحجاج اللغوي على المدونة (الإمتاع والمؤانسة).

- دراسة سليمة محفوظي، (2010)، وسائل الإقناع في خطبة طارق بن زياد (دراسة تحليلية في ضوء نظرية الحجاج) رسالة ماجستير ، جامعة الحاج لخضر، الجزائر.

اهتمت الباحثة في رسالتها بإبراز التأثير والإقناع والحجج المقنعة التي انطوت عليها خطة طارق بن زياد وحللت الظواهر البلاغية واللغوية البارزة فيها مثل: (الربط ، التكرار، الازدواج، الإحالة) والصور البيانية (الاستعارة، التشبيه، المجاز) والمحسنات البديعية (الطباق ، الجناس) التي عملت على اتساق النص وترابطه .

- دراسة بإشراف الدكتور : حافظ إسماعيلي علوي ، (2010)، الحجاج مفهومه ومجالاته (دراسة نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة)، ط1، عالم الكتب الحديث ، إربد - عمان .

وهو كتاب جماعي أشرف عليه د. حافظ إسماعيلي علوي (المغرب) بهدف سدّ جانب من النقص في المكتبة العربية في مجال (الحجاج) وقسمت البحوث في خمسة أقسام: حدود وتعريفات، ومدارس وأعلام، والحجاج وحوار التخصصات، والحجاج والمراس، ونصوص مترجمة . وقد شارك في هذا الكتاب الموسوعي نخبة من الباحثين المتخصصين في مجال الدراسات الحجاجية، ينتمون إلى مجموعة من الأقطار العربية. وقد شارك فيه من المغرب الدكتور محمد العمري ، الدكتور أبو بكر العزاوي، الدكتور حافظ إسماعيلي علوي، الدكتور عبد النبي ذاكر.

- دراسة للدكتور: علي محمد علي سلمان، (2010)، كتابة الجاحظ في ضوء نظريات الحجاج (رسائله نموذجاً)، ط 1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت.

بحث الكاتب د . علي محمد سلمان أصول النظرية الحجاجية التي قامت على آثار أرسطو وما تم إضافته وتطويره على أصل النظرية عند العرب والغرب قديماً وحديثاً، وحاول تطبيق نظرية الحجاج على الثقافة العربية في العصر العباسي، واختار الكاتب رسائل الجاحظ المحققة من قبل عبد السلام هارون لتكون المادة المطبقة على نظرية الحجاج، لتحليل الخطابات ذات الطابع الحجاجي، وبيان مقاصدها وغاياتها.

- دراسة هيثم سرحان، (2011)، الحجاج عند الجاحظ؛ بحث في المرجعيات والنصيات والآليات، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، جامعة الكويت، مجلس النشر العلمي، العدد 115، السنة 29.

حاول الباحث الكشف عن نظريات الحجاج السردية عند الجاحظ بالوقوف على مرجعياته، وآلياته، ونصياته لاستخراج معالم الخطاب الحجاجي وصيغته الدلالية، ذلك أن الخطاب الحجاجي ذو أبعاد دلالية؛ يصدر عن مقاصد، ويستهدف التأثير في قنوات المخاطبين ودفعهم إلى تبني فكرة ما، ويبيّن الباحث أن الجاحظ لم يكن منفصلاً عن الصراعات، بل كان منخرطاً في فرقة المعتزلة حيث تطلب ذلك منه الدفاع عنهم وعن أفكارهم وبرامجهم.

- دراسة الدكتور عبدالله صولة، (2011). في نظريات الحجاج: دراسة وتطبيق، ط1، مسكيلياني للنشر والتوزيع، تونس.

مجموعة من المقالات كتبها صاحبها في فترات مختلفة، ثم تم جمعها من زوجته ونشرها، تحدث فيها صولة عن أطر الحجاج وتعريفه وعلاقة الحجاج بالجدل والخطابة، وعرض بعد ذلك أشكال الحجاج أنواعه والتقنيات المستخدمة في بلاغة الحجاج، وطبق على ذلك من خلال كتاب الأيام لطفه حسين .

- دراسة نور الهدى غديري، (2011)، تجليات الأيدولوجية في كتاب العرب لابن قتيبة - مقاربة موضوعية فنية - رسالة ماجستير، جامعة العقيد الحاج لخضر، باتنة، الجزائر .

حاولت الباحثة في هذه الرسالة البحث عن حقيقة الشعوبية، وحاولت إبراز منهج ابن قتيبة في الرد على هؤلاء الشعوبية من خلال كتابه (الرد على الشعوبية، رسالة العرب) بإظهار الأساليب مع البيان للمطاعن التي أوردوها بحق العرب، وكيف رد عليها ابن قتيبة .

- دراسة ليلى جغام، (2013)، الحجاج في كتاب البيان والتبيين للجاحظ، أطروحة دكتوراه ، جامعة محمد مخيضر، بسكرة، الجزائر .

تناول الباحث في أطروحته الإمكانات الحجاجية التي ميزت الجاحظ، وكذلك الآليات الحجاجية التي رسمتها استراتيجية بناء (البيان والتبيين) للجاحظ متنوعة لخصت في ثلاث هي: الإخبار والإقناع والتفسير، وكلها موصلة للحجاج، وحقق الباحث بتطبيق النماذج الحجاجية على أغلب وظائف الحجاج، والتي توزعت على ثلاث هي: الإقناعية والمداولة والإثبات، والتي تتضمن كلها رغبة المتكلم في إيصال السامع إلى وضوح المعنى، ومنفعة الفهم.

ويتميز هذا البحث عن البحوث و الدراسات السابقة بالكشف عن أنواع الحجاج وأساليبه وأنواعه المستخدمة في الرد على الشعوبية، وذلك لأهمية الربط بين الحجاج والقضايا التي ستكون في ضوئها. ومن النصوص التي سيهتم بها البحث : كتاب العصا للجاحظ، و رسالة العرب لابن قتيبة، والردود عليها.

مشكلة الدراسة

تتمثل مشكلة هذه الدراسة في التعرف على الحجاج ومفاهيمه المستخدمة في النثر العربي القديم كما ظهرت في نصي الجاحظ وابن قتيبة . وهل ظهرت ألفاظ بشكل بارز وواضح في نصي الجاحظ وابن قتيبة ؟ وأين ظهرت ملامح البلاغة الحجاجية في الجدل حول قضية الشعوبية التي بانّت في العصر العباسي ؟ و ما أهم الآليات والأساليب والأنواع الحجاجية التي وظّفت في التعبير عن الشعوبية وفي نقضها ؟ وما دور الجدل حول الشعوبية في تطوير آليات الحجاج ؟ وماهي عناصر العملية الحجاجية في نصي الجاحظ وابن قتيبة؟

أهمية الدراسة

تظهر أهمية هذه الدراسة في التعرف على أهم مفاهيم الدرس الحجاجي وتطوراته الدلالية والتاريخية على مر الأزمنة والعصور. و كذلك في قلة الدراسات المتعلقة بالحجاج في المشرق العربي، و التعرف على الآليات الحجاجية الموظفة في النثر العربي القديم، و محاولة تطبيق النظريات الحجاجية الحديثة في تحليل النثر العربي القديم.

أهداف الدراسة

- تعزيز ثقافة الجدل والحوار والعقل عند العرب كما سيظهر عند الجاحظ وابن قتيبة.
- الكشف عن أنواع وأساليب الحجاج المستخدمة في نص الجاحظ (كتاب العصا) ونص ابن قتيبة (رسالة العرب) في الرد على مطاعن الشعوبية.
- إظهار ألفاظ الحجاج المستخدمة والمتداولة عند الجاحظ وابن قتيبة في قضية الشعوبية.

منهج الدراسة

اقتضت طبيعة الدراسة الاعتماد على المنهج الموضوعي، لأنه الأنسب لهذا النوع من البحوث من حيث وصف الظواهر الحجاجية وتحليل الشواهد وفق آليات النظرية الحجاجية. كما كان لابد من الاستعانة بالمنهج الأسلوبي ومنهج تحليل الخطاب .

محتوى الدراسة

انقسمت هذه الدراسة إلى تمهيد وفصلين وخاتمة؛ وجاء في التمهيد تعريف الحجاج عند اللغويين والأصوليين والبلاغيين وتطوره الدلالي عند العرب، وذكرت العلاقة التي تربط بين البلاغة والحجاج ومن ثم انتقلت إلى إبراز مفهوم الشعوبية وبيانها وأصولها فبينت أهم المطاعن التي ذكرتها ضد العرب في تلك الآونة الزمنية.

واجتهدت في **الفصل الأول** بتوضيح الخطاب الحجاجي في النثر العربي (قضية الشعوبية)، وقمت على تقسيمه في ثلاثة مباحث : فذكرت في المبحث الأول البنية العامة وأركان

العملية الحجاجية في قضية الشعوبية وما يحتاج إليه الحجاج من وجود طرفين ودعوى، يحاول كل طرف إقناع الطرف الآخر بدعواه، أما المبحث الثاني: أفردته للكشف عن الآليات المستخدمة في الرد على مطاعن الشعوبية، واختتمت المبحث الثالث بإظهار أنواع الحجاج المستخدم عند الجاحظ وابن قتيبة في الرد على مطاعن الشعوبية، ومن هذه الأنواع : الحجاج المؤسسة على بنية الواقع والحجاج السببية، وحجاج السلطة والحجاج التي تستدعي القيم.

وأما **الفصل الثاني** فقد كان دراسة تحليلية أسلوبية تهدف إلى تحليل ظاهرة الحجاج في قضية الشعوبية، بدأت بالبنية الصوتية للنصوص الحجاجية، وانتقلت للكلمة المعجمية، ومن بعدها للتركيب الحجاجي، وكذلك حتى وصلت إلى الروابط الحجاجية. وانتهى البحث بخاتمة موجزة تجمل أهم نتائجه وخلاصاته.

التمهيد

- مفهوم الحجاج
- البلاغة والحجاج
- تطور الحجاج عند العرب
- مفهوم الشعبوية

مفهوم الحجاج

لقد دارت معاني الحجاج حول مادة (ح ج ج) في المعاجم اللغوية، فجاء في معجم العين: "المحجة: قارعة الطريق الواضحة. والحجة: وجه الظفر عند الخصومة، والفعل: حاججته فحججته، واحتججت عليه بكذا. وجمع الحجة: حجاج. والحجاج: المصدر⁽¹⁾. وقد نقل الأزهري مادة العين وأضاف إليها بعض التفسيرات والزيادات فقال: " وإنما سميت حجة أنها تقصد، لأن القصد لها وإليها. وكذلك محجة الطريق هي المقصد والمسلك. وقال ثعلب: حججته: أي قصده، ومن أمثال العرب: لج فحج، قال بعضهم: لج فغلب من لاجه بحججه. يقال: حاججته أحاجه: حجاجاً ومُحاجةً، حتى حججته، أي: غلبته بالحجج التي أدليت بها⁽²⁾.

وفي الصحاح للجوهري: "الحجة: البرهان. تقول: حاجه فحجه، أي غلبه بالحجة. وهو رجل محجاج أي جدل. والتجاج: التخاصم"⁽³⁾. وفي أساس البلاغة للزمخشري: "احتج على خصمه بحجة شهباء، وبحجج شهب، وحاج خصمه فحجه، وفلان خصمه محجوج، وكانت بينهما مُحاجة ومُلاجة. وسلك المحجة، وعليكم بالمناهج النيرة، والمحاج الواضحة. وحجوا مكة، وهم حجاج... وفلان تحجه الرفاق أي تقصده⁽⁴⁾.

وفي لسان العرب لابن منظور مادة طويلة تكرر ما ورد سابقاً، وتضيف ما يقرب من التعريف الاصطلاحي: "والحجة: استدلال يؤدي ضرورة إلى إثبات ما كان موضع نظر، وقد يستعمل بمعنى الدليل، مما يراد به إثبات أمر أو نقضه... والتجاج: التخاصم. الاحتجاج من احتج بالشئ أي اتخذ حجة... والحجة: الدليل والبرهان. وأحج خصمي أي أغلبه بالحجة. وجمع الحجة: حجاج وحجاج. وفي حديث الدجال: إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه. أي: مُحاجه ومُغالبه بإظهار الحجة عليه⁽⁵⁾.

-
- (1) الفراهيدي، الخليل بن أحمد (د.ت). كتاب العين، تحقيق مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، وزارة الثقافة، بغداد، ج 3، ص 10، مادة (ح،ج،ج).
- (2) الأزهري، أبو منصور محمد بن أحمد، (د.ت) معجم تهذيب اللغة، تحقيق عبد الحليم النجار وآخرون، ط 1، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، ج 3، ص 390، مادة (ح،ج،ج).
- (3) الجوهري، إسماعيل بن حماد، (1979). الصحاح (تاج اللغة وصحاح العربية)، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، ط 2، دار العلم للملايين، بيروت، ج 1، ص 304، مادة (ح،ج،ج).
- (4) الزمخشري، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر (1998). أساس البلاغة، تحقيق: محمد باسل عيون السود، ط 1، منشورات دار الكتب العلمية، بيروت، ج 1، ص 169.
- (5) ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور، (2005). لسان العرب، ط 4، دار صادر، بيروت - لبنان، ج 4، ص 38، مادة (ح،ج،ج).

ولخصّ الزبيدي في تاج العروس أكثر ما جاء قبله، وفي معجمه: "الحُجّة (بالضم) : الدليل والبرهان، وقيل ما دُفع به الخصم.. الحجّ : الغلبة بالحجة، يقال حجّه يحجّه حجاً، إذا غلبه على حجّته. وفي الحديث : (فحجّ آدم موسى) أي: غلبه بالحجة، وفي حديث معاوية: (فجعلت أحجّ خصمي) أي: أغلبه بالحجة (1).

ومما سبق نتبين بعض الدلالات في معنى الحجاج:

- معنى: القصد، وما فيه من نيّة وتصميم ووعي، ففعل الحجاج فعل قصدي، وليس ارتجالياً أو عفويّاً.
- وأنه مبنيّ على الاختيار، وعلى التفكير والتأمل، ولذلك فهو أكثر ارتباطاً بالعقل، وأبعد عن البديهة والطبيعة.
- وأنه فعل أو حدث ثنائي، بمعنى أنه لا يتم بين الإنسان ونفسه ، وإنما بين الإنسان وغيره، وهو أيضاً ينتج عن "خصومة" أو "اختلاف" فأطراف الحجاج ليست متشابهة وإنما مختلفة متباينة.
- وأن الحجاج لا بد له من حجج، أي: أدلة وبراهين ، يغلب بها المحاجّ خصمه.
- ولا يبعد ما ورد في كتب التعريفات ومصنّفات الأصوليين عما ألمحت إليه المعاجم، فقال الجرجاني: " الحُجّة ما دُلَّ به على صحة الدعوى، وقيل الحجة: الدليل"(2). وميّز السرخسي بين الدليل والحجة فقال: " الدليل خاص بما هو مُظهر للحكم فقط، والحجة يكون موجبا للحكم تارة ، ومظهراً له تارة أخرى"(3).
- ولابن حزم الأندلسي شبه قاموس صغير في (تفسير ألفاظ تجري بين المتكلمين في الأصول) يوجز تعريفات ألفاظ كثيرة مما له علاقة بالحجاج نظراً للارتباط الوثيق بين المتكلمين والحجاج ، ومنها الألفاظ الآتية :
- " البرهان : كل قضية أو قضايا دلت على حقيقة حكم ما. والدليل: ما استدلّ به، وقد يكون برهاناً، وقد يقع اسماً لكل شيء ذلك على معنى كرجل ذلك على طريق ونحو ذلك.
- والحجة: هي الدليل نفسه ، وقد تكون برهاناً أو إقناعاً. والاستدلال: طلب الدليل من قبل معارف العقل ونتائجه، أو من قبل معلم. والجدل والجدال: إخبار كل واحد من المختلفين بحجته أو بما يقدرّ أنه حجته " (4).

(1) الزبيدي، السيد محمد مرتضى الحسيني (1969). تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق : مصطفى حجازي، مطبعة حكومة الكويت، ج 5، ص 464.

(2) الجرجاني، علي بن محمد الشريف (1992). التعريفات، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار اللسان العربي، بيروت، ص 482.

(3) السرخسي، محمد بن أحمد بن أبي سهل (1993). أصول السرخسي، تحقيق أبو الوفا الأفعاني، ط 1، دار الكتاب العلمية، بيروت، ص 46.

(4) الأندلسي ، ابن حزم (1987). رسائل ابن حزم الأندلسي، تحقيق إحسان عباس، ط2، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ج4، ص413-416.

وإذا انتقلنا إلى التعريفات المعاصرة للحجاج فسنلاحظ أنها مستمدة من حقول متنوعة : لغوية وبلاغية ومنطقية. ويعزز ذلك ما تراءى لنا في المنابع المعجمية من تنوع وتداخل. ويعرّف عبد الله صولة الحجاج بأنه : " درس تقنيات الخطاب التي من شأنها أن تؤدي بالأذهان إلى التسليم بما يعرض عليها من أطروحات، أو أن تزيد في درجة ذلك التسليم " (1).

ويعرف أبو بكر العزاوي الحجاج من منظور لغوي فيقول: " الحجاج هو تقديم الحجج والأدلة المؤدية إلى نتيجة معينة، وهو يتمثل في إنجاز تسلسلات استنتاجية داخل الخطاب ، وبعبارة أخرى يتمثل الحجاج في إنجاز متواليات من الأقوال بعضها بمثابة الحجج اللغوية ، وبعضها الآخر بمثابة النتائج التي تستنتج منها " (2).

وجمع عبد الهادي الشهري عناصر متعددة في تعريفه ، فقال: " إن الحجاج ممارسة لفظية، اجتماعية، عقلية تهدف إلى تقديم نقد معقول حول قبولية الموقف بصياغة مجموعة تراكمية من القضايا التي تبرر الدعوى المعبر عنها في الموقف، أو تدحضها " (3).

وصاغ حافظ علوي من مجمل التعريفات تعريفاً موجزاً يتمثل في أن : "الحجاج جنس خاص من الخطاب، يبني على قضية أو فرضية خلافية، يعرض فيها المتكلم دعواه مدعومة بالتبريرات، عبر سلسلة من الأقوال المترابطة ترابطاً منطقياً، قاصداً إلى إقناع الآخر بصدق دعواه والتأثير في موقفه أو سلوكه تجاه تلك القضية (4).

وخلاصة القول في ذكر الحجاج، هي أدلة وبراهين يطرحها أحد الطرفين ويدعمها بمجموعة من الأدلة والبراهين بهدف إقناع الطرف الثاني بالآراء والقضايا المطروحة محاولاً تغيير موقفه.

(1) صولة، عبدالله (2011). في نظريات الحجاج : دراسة وتطبيق، ط 1، مسكيلياني للنشر والتوزيع، تونس، ص 13.

(2) العزاوي، أبو بكر (2006). اللغة والحجاج، ط1، العمدة في الطبع، الدار البيضاء، المغرب، ص16.

(3) الشهري، عبد الهادي بن ظافر (2010). آليات الحجاج وأدواته، ضمن كتاب : الحجاج مفهومه ومجالاته، ص 77.

(4) علوي، حافظ إسماعيلي (2010). الحجاج مفهومه ومجالاته، ط 1، عالم الكتب الحديث، اربد - الأردن، ج 2، ص 7.

البلاغة والحجاج

يظهر في أصل المعنى اللغويّ للبلاغة إشارة إلى بلوغ الغاية والوصول واكتمال الرسالة، فالبلاغة مشتقة من الفعل (بلغ) بمعنى: إدراك الغاية أو الوصول إلى النهاية. وقد تتبع أحمد مطلوب في معجمه سلسلة طويلة من تعريفاتها ومعانيها⁽¹⁾، ومن متابعتها يظهر لنا أنها عنيت بالألفاظ والمعاني معاً، كما عنيت بالقائل (أو الكاتب، الشاعر) وبالسامع أو المتلقي في آن، وقد تشعبت مصطلحاتها وتقسيماتها تبعاً لتطور التأليف فيها، وهو ما لا شأن لبحثنا بالخوض فيه، حتى لا يعدل عن وجهته. ولكن يمكن القول على وجه الإجمال إن البلاغة عند المتقدمين عنيت بطرق تأدية المعاني وتأثيرها وإقناعها، وكان اهتمام المتقدمين باللفظ متوازناً مع البحث في المعنى، خصوصاً في مراحل ربطها بقضايا الإعجاز والبيان القرآني، ثم جرى في المراحل اللاحقة الاهتمام بالألفاظ وجوانب التأثير الجمالي أكثر من أي أمر آخر، وغدت البلاغة في تقسيماتها المستقرة بعد السكاكي تكاد تقتصر على علوم محددة لها مباحث مسماة تعنى في جملتها بوجوه التصوير والجمال في الكلام، وهو ما يبرز في الاهتمام بعلمها الثلاثة المعروفة: البيان والمعاني والبديع، واهتمامها بجزئيات الكلام وليس بالخطاب كله⁽²⁾.

يتصل الحجاج بالبلاغة اتصالاً وثيقاً، وفيه نظراً شبيه بما مرّ ذكره في البلاغة من ناحية التأثير وبلوغ الغاية، وهو يرتبط أيضاً بمدى قدرة المتكلم على التأثير في السامع أو المتلقي بما يودع في الرسالة من الخصائص التأثيرية والمزايا العقلية أو المنطقية أو العاطفية الكفيلة بجعل المستمع أو المتلقي يذعن لما يقوله الخطاب أو النص.

ويمكن القول بأن الحجاج نوع من البلاغة، يتصل أكثر ما يتصل بالبلاغة العقلية، فإذا كانت البلاغة عامة تهتم بالجانبين: الإمتاع والإقناع، فإن الإمتاع يقوم على إجراءات أسلوبية واستراتيجيات تخاطب أحاسيس المتلقي، وتحرك عواطفه لتبني موقف مؤيد للخطاب الموجه إليه. وأما الجانب الإقناعي الحجاجي فيقوم على فعالية العقل وضروب شتى من التفكير، ولا يتصل بالكلام الجميل وحده، ولذلك يقوم الحجاج على الأطروحة والأطروحة المضادة، والاستدلال المنظم، وبحث المعقول والمقبول من الرأي المخالف⁽³⁾.

(1) مطلوب، أحمد (1983). معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، ط1، المجمع العلمي العراقي، بغداد، ج1،

ص402 وما بعدها.

(2) انظر: ضيف، شوقي، البلاغة تطور وتاريخ، ط 9، دار المعارف، القاهرة، ص 9 - 32.

(3) الدهري، أمينة (2011). الحجاج وبناء الخطاب في ضوء البلاغة الجديدة، ط 1، شركة النشر وتوزيع المدارس، الدار البيضاء، ص 8 - 12.

إن الهدف الأساسي للخطاب الحجاجي هو الوصول إلى إقناع السامع بفكرة معينة، كان أخذ منها موقف الرفض أو المتشكك، ومن ثم يقوم المتكلم بإبطال الفكرة المراد نقضها، والتي تكون هي المسيطرة على ذهن المتلقي، ثم إحلال الفكرة الجديدة مكانها، فالحجاج يهدف إلى الإقناع: " الحجاج خطابة تستهدف استمالة عقل المتلقي، والتأثير على سلوكه، أي الإقناع " (1).

وقد اهتم البلاغيون القدامى بمسائل البلاغة والحجاج، فالتفت الجاحظ في غير موضع من كتبه إلى الحجاج ومسائله. والمتأمل عنده في تعريفات البلاغة التي أوردها في البيان والتبيين يقطع في غير شك أن البلاغة هي الحجاج. وأكثر من هذا مما يتمثل في أخبار المناظرات والجدل والاختلاف مما يورده الجاحظ في كتبه ورسائله، ففي هذه المادة كنز حجاجي لا حدود له، يتوفر على طرق وأساليب وفنون شتى، وعلى أطراف متعارضة يسمعنا صوته، ويتجادل معها بتأن واستمتاع، لا يخاف شيئاً من أمرها، لنقته بقوة حجاجه وجدله، واطمئنانه إلى المبادئ العقلية واللغوية التي ينهض عليها خطابه.

وبالرغم من وعي الجاحظ بقضية الحجاج وأهميتها في البيان والتبيين إلا أن كثيراً ممن جاؤوا بعده من البلاغيين انشغلوا عنها بالتفكير في العبارة وما يتبعها من تقليبات ووجوه، حتى غدت البلاغة بلاغة عبارة لا بلاغة نص، وبلاغة جمل لا بلاغة خطاب، رغم أن البلاغة معنية بدراسة الخطاب بوصفه متواليّة من الجمل (2).

وحين يكون الحديث عن التواصل بعامة والحجاج بخاصة، لا بدّ للبلاغة من أن تنصّدر الكلام، أو قلّ لا بدّ للخطاب البلاغي من أن يكون حاضرًا بامتياز " يدخل الجانب البلاغي كآلية رئيسية في تشكيل خطاب جمالي لتحقيق تواصل مميز ومثمر بين الناس، واليوم نعيش عودة قوّة للبلاغة، التي تعرف حضورًا متميزًا في مشهد علوم التواصل " (3).

ويطابق بعض الباحثين المعاصرين بين البلاغة الجديدة والحجاج: " تعرّف البلاغة الجديدة بأنها نظرية الحجاج التي تهدف إلى دراسة التقنيات الخطابية، وتسعى إلى إثارة النفوس، وكسب العقول عبر عرض الحجج، كما تهتمّ البلاغة الجديدة أيضًا بالشروط التي تسمح للحجاج بأن ينشأ في الخطاب، ثم يتطور، كما تفحص الآثار الناجمة عن ذلك التطور " (4).

(1) عبد المجيد، جميل (2000). البلاغة والاتصال، د ط، دار غريب، القاهرة، ص 7.

(2) الدهري، أمينة (2011). الحجاج وبناء الخطاب في ضوء البلاغة الجديدة، ص 26.

(3) عشير، عبد السلام (2006). عندما نتواصل نغيّر: مقارنة تداوليّة معرفيّة لآليات التواصل والحجاج، ط 1،

افريقيا للنشر، الدار البيضاء، ص 17.

(4) حباشة، صابر (2008). التداوليّة والحجاج : مداخل ونصوص، ط 1، صفحات للدراسات والنشر، سورية

- دمشق، ص 15.

ويميز صابر الحباشة بين الحجاج والبلاغة فيقول : " ليس الحجاج علماً / فنّاً يوازي البلاغة، بل هو (ترسنة) من الأساليب والأدوات يتم اقتراضها من البلاغة (ومن غيرها، كالمنطق، واللغة العادية...)، ولذلك فمن اليسير الحديث عن اندماج الحجاج مع البلاغة في كثير من الأساليب. ولما كان مجال الحجاج هو المحتمل وغير المؤكد والمتوقع، فقد كان من مصلحة الخطاب الحجاجي أن يقوّي طرحه بالاعتماد على الأساليب البلاغية والبيانية التي تُظهر المعنى بطريقة أجلي وأوقع في النفس لأداء أغراض تواصلية، وإنجاز مقاصد حجاجية، وإفادة أبعاد تداولية " (1).

وهذه الآراء في جملتها تدل على الصلة الوثيقة بين البلاغة والحجاج، سواء أكان الحجاج فرعاً من البلاغة، أم كان حقلاً مستقلاً يلتقي معها في وجوه، ويفترق في أخرى، ففي كل حال نراه حقلاً حيويًا من حقول الخطاب الأدبي العربي، بما يتيح من إحياء دور العقل والتفكير، وما يسعى إليه من إيقاظ ملكات الجدل والحوار والتأمل والتعمق، بعيداً عن المناحي التأثيرية العاطفية التي وسمت جانباً واسعاً من كلام العرب.

تطور الحجاج عند العرب

جاء ذكر الحجة ومشتقاتها في القرآن الكريم ما يقرب من عشرين مرة (2)، في مثل قوله تعالى: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ (3) .. وقد استدللّ طه حسين بكثرة الإشارات القرآنية إلى الحجاج والجدل على قوّة الحياة العقلية عند العرب في الجاهلية ، فالقرآن : "يمثل لنا حياة دينية قوية تدعو أهلها إلى أن يجادلوا عنها ما وسعهم الجدل.. ويمثل حياة عقلية قوية، يمثل قدرة على الجدل والخصام أنفق القرآن في جهادها حظاً عظيماً" (4).

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ ءَاسَلَمْتُ فَإِنْ ءَاسَلُمُوا فَقَدْ أَهْتَكَدُوا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ (5).

(1) حباشة، صابر (2008). التداولية والحجاج : مداخل ونصوص ، ص 50.

(2) الإدريسي، علي (2006). في تأسيس الحجاج لدى مفكري الإسلام – الرسالة الجوابية للحسن البصري على رسالة عبد الملك بن مروان نموذجاً، ضمن: التحاجج طبيعته ومجالاته ووظائفه، تتساق حمو النقاري، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 134، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط، المغرب، ص 82 – 83.

(3) سورة النساء، الآية 165.

(4) حسين، طه، (1996). في الشعر الجاهلي، تقديم عبد المنعم تليمة، ط3، دار النهر للنشر والتوزيع، القاهرة، ص 57.

(5) سورة آل عمران ، الآية 19 .

وقوله تعالى : ﴿ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴾ (1) .

وقد أورد ابن سلام في (غريب الحديث) من حديث النبي صلى الله عليه وسلم : " أن رجلين اختصما إليه في مواريث وأشياء قد درست. فقال صلى الله عليه وسلم: لعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فمن قضيت له بشيء من حق أخيه فإنما أقطع له قطعة من النار)... قوله : لعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض: يعني أظن لها وأجدل"(2).

وأوردت كتب الحديث : "حديث الرجل الذي جاء إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ناكراً لون ولده ، قائلاً: يا رسول الله إن امرأتي ولدت غلاماً أسود، فقال له رسول الله : هل لك من إبل؟ قال: نعم، قال: ما ألوانها؟ قال: حمر، قال: هل فيها من أورك؟ قال: نعم، قال : فمن أين ذلك؟ قال: لعل عرقاً نزعته، فقال رسول الله: وهذا الغلام لعل عرقاً نزعته"(3).

وقد تطوّر الحجاج في الفكر العربي الإسلامي مع تطور الفرق وكثرتها واتساع جدلها، وبرز في لونين خطابين، هما: "خطابة الجدل والمناظرة فيما بين زعماء الملل والنحل، وفيما بين النحاة والمناطق، وفي ما بين الفلاسفة والمتكلمين"(4). وقد قوي الحجاج مع ظهور المعتزلة أو علماء الكلام الذين اتخذوا الجدل حرفة لهم، يتقنون فيها ويلجأون إلى فنون شتى من المجادلات والمحاورات التي أسهمت في تطور هذا اللون من بلاغة العرب.

وقد تساندت علوم متنوعة في الاهتمام بالحجاج وتطوير سبله وطرقه، وتأثر بما نقله العرب من الآثار اليونانية وما عرفوه من فلسفة أرسطو الذي يردد الجاحظ اسمه في مواقع كثيرة من مصنفاته ويسميه (صاحب المنطق)، واندمجت الحاجة إلى الجدل والحجاج باهتمامات علماء الكلام وغيرهم، كما تأثر بذلك بعض البلاغيين الذين أولوا الإقناع اهتماماً واضحاً في ضوء الطبيعة الجدلية للقرن الثالث الهجري على وجه الخصوص، وهو الذي نعنى به في هذه الدراسة من خلال اثنين من أبرز أعلامه: الجاحظ ، وابن قتيبة.

وفي العصر الحديث يعود الفضل إلى "المدرسة المغاربية" في الاهتمام بالحجاج وربطه بالبلاغة الجديدة، وتكوين مجموعات بحثية عنيت بهذه المباحث، فضلاً عن صدور عدد لا بأس به من الدراسات الجامعية تناولت وجوهاً متنوعة مما يطور الدراسة والبحث في هذا المجال، ويضعه في مستوى واضح من الاهتمام إلى جانب المباحث البلاغية واللغوية والنقدية الأخرى.

(1) سورة آل عمران، الآية 61.

(2) أبو عبيد، القاسم بن سلام، غريب الحديث، ج2، ص40.

(3) ابن الجوزي، (2008). صحيح البخاري مع كشف المشكل ، حققه ورتبه وفهرسه مصطفى الذهبي، د ط، دار الحديث، القاهرة، ج 3، كتاب الطلاق، باب إذا عرّض بنفي الولد، حديث رقم 5305، ص 684 - 685 ، وأورده الإدريسي بدون تخريج في كتاب : في تأسيس الحجاج لدى مفكري الاسلام. ص83.

(4) عبد المجيد، جميل (2002). البلاغة و الاتصال، ص 126.

ويمكن الإشارة إلى جهود كثيرين من مثل: عبدالله صولة، حمادي صمود، وأبو بكر العزاوي، ومحمد العمري، وشكري المبخوت، وغيرهم من تلاميذهم الذين ترسموا خطاهم في هذا الاهتمام.

أما في المشرق العربي فيمكن القول إن الالتفات المتأخر للحجاج والنظريات الحجاجية لم يسمح بعد بأن يأخذ هذا الاهتمام المساحة التي يستحقها، وما زالت دراسة البلاغة تجري وفق المناهج التقليدية، وقلما تتضمن شيئاً من مباحث الحجاج أو تنتبه إلى أهمية إحياء دراسته والإفادة من الاهتمام الغربي والعربي المتزايد به في العقود الأخيرة. وهو بعض ما حقّرنا للقيام بهذه الدراسة لعلها تكون لبنة في طريق توسيع الاهتمام بالدراسات الحجاجية.

مفهوم الشعوبية

لفظة (الشعوبية) مأخوذة من الشعوب : "جمع شعب، وهو ما تشعب من قبائل العرب والعجم. وكل جيل شعب. وقد غلبت الشعوب، بلفظ الجمع على جيل العجم، حتى قيل لمحتقر العرب: شعوبي. والشعوب: فرقة لا تفضل العرب على العجم. والشعوبي الذي يصغر شأن العرب، ولا يرى لهم فضلاً على غيرهم.. وأما الذي في حديث مسروق: (أن رجلاً من الشعوب أسلم، فكانت تؤخذ منه الجزية، فأمر عمر أن لا تؤخذ منه)، قال ابن الأثير: الشعوب هاهنا العجم، ووجهه أن الشعب ما تشعب من قبائل العرب أو العجم، فخصّ بأحدهما، ويجوز أن يكون جمع الشعوبي: وهو الذي يصغر شأن العرب، كقولهم اليهود والمجوس، في جمع اليهودي والمجوسي⁽¹⁾.

ويمكن القول بأن الحركة الشعوبية هي حركة ثقافية وحضارية نشأت بسبب تنوع الأعراق والأجناس في العصر العباسي، وتمثلت في سعي كل عرق أن يحقق نوعاً من السبق والأفضلية على غيره، واتسعت لتشمل ألواناً من المفاضلات شملت الماضي والحاضر، ولكن جوهرها لم يتغير بوصفها حركة تمثل : " تعصّب كل شعب لقوميته وحضارته ضد العرب، وقد نجمت عن تعدد الشعوب التي ضمّها المجتمع العباسي. لقد تألف ذلك المجتمع من عرب وفرس وهنود وروم وزنج الخ... وبما أن العرب يمثلون الأمة الحاكمة، لهذا اتجهت الشعوبية ضدهم، فحاول أبناء الشعوب الأخرى أن يثبتوا للعرب هوياتهم ووجودهم، ويبينوا لهم أنهم ليسوا أفضل من سائر الأمم " (2).

(1) ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم (2005) لسان العرب، ج 8، ص 87 مادة (ش ع ب)

(2) بو ملحم، علي (1988). المناحي الفلسفية عند الجاحظ، ط 2، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ص 41.

ولم تتخذ الشعوبية شكل حركة منظمة، لها أصولها ومبادئها إلا في العصر العباسي الأول ، ويذهب الأستاذ أحمد أمين إلى أن كلمة (الشعوبية) استعملت أول مرة للدلالة على هذه الحركة في كتاب البيان و التبیین للجاحظ (1).

وفي خضم الجدل الشعبي ميّز الدارسون درجات لهذا الجدل ، فأما أهل التسوية فيقصد بهم من حاولوا المساواة بين الناس، ورفضوا التفاضل على أساس الأعراق والأنساب ، فأهل التسوية وفق ذلك: هم الذين يرون أن الناس كلهم متساوون فيما بينهم، وينكرون التفاضل بالأحساب والأنساب، وقد احتج هؤلاء بقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ إِيَّا خَلَقْنَكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَكُمْ

شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ۝﴾ (2) وقوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا

بَيْنَ أَخَوِيكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝﴾ (3) وبالحديث النبوي الشريف: " كلكم لأدم وآدم من تراب، لا

فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى ". ومن ذلك يتضح أن الناس سواسية، ولا تفاضل بينهم إلا بالشرف والتقوى. ويرى الدكتور الدوري أن العرب كان لهم فضل وسبق في رفع راية التسوية ، وفي ذلك يقول : " وكان العرب أول من رفع راية التسوية، وتبعهم الموالي .. " (4).

ولكن هناك فرقة أو فرقاً توسّعت في صراعها ولم ترد التسوية وإنما أرادت أن تفضل العرب وأن لا ترى في ثقافتهم شيئاً ذا قيمة، ويمكن تسمية هذا الفريق الثاني " أهل العداوة " فهم أشد عداوة للعرب من فريق " التسوية ". وقد قوي الصراع بين هذا الفريق ومن جابهه من العرب وغير العرب، وامتد إلى مختلف مناحي الحياة العباسية، فهو صراع في السياسة والإدارة والدين والعلم والأدب والعادات والتقاليد (5) .

(1) أمين، أحمد (1997). ضحى الاسلام، ط 1، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ج 1، ص 59.

(2) سورة الحجرات، آية (13).

(3) سورة الحجرات، آية (10).

(4) الدوري، عبد العزيز (1981). الجذور التاريخية للشعوبية، ط 3، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ص

وقد قسم محمد نبيه حجاب " أهل العداوة " إلى قسمين : قسم: هاجم العرب من حيث هي أمة، ولم يتعرض للإسلام بأذى؛ إذ الإسلام في نظره دين الجميع وإن ظهر بين ظهرياني العرب. وقسم آخر: هاجم العرب ودينهم الجديد معاً.. وهؤلاء قد دفعتهم العصبية الجنسية إلى كره العرب وما جاء عنهم ولو كان ديناً سماوياً⁽¹⁾. وإلى ذلك يشير الجاحظ في قوله: " وربما كانت العداوة من جهة العصبية، فإن عامة من ارتاب في الإسلام إنما جاء ذلك من الشعوبية؛ فإذا أبغض شيئاً أبغض أهله، وإن أبغض تلك اللغة أبغض تلك الجزيرة.. فلا تزال الشعوبية تنتقل بأهلها من وضع إلى وضع حتى ينسلخوا من الإسلام ؛ لأنه نزل على نبي عربي، وكان العرب حملة لوائه عندما نزل " (2).

وقد اعتمدت الشعوبية الأدب وسيلة لزور بذور الشقاق والكراهية في نفوس الناس من غير العرب ومن غير المسلمين تجاه العرب خاصة والإسلام عامة، وكان الأدب أحد أهم الأدوات التي استغلت في هذا الاتجاه لكونه أكثر التصاقاً في عقول الناس وأقرب تأثيراً في نفوسهم.

وقد تصدى للشعوبية كثير من المفكرين والأدباء ممن أدركتهم الغيرة على دينهم وثقافتهم ولغتهم العريقة ، فأخذوا يفتنون أقوال خصومهم الشعبويين، ونتجت عن هذه المجادلات والردود حركة فكرية وأدبية أسهمت إسهاماً واسعاً في تطوير الحجاج والبلاغة التي تمثلها أو تتصل به، مما يبرز في كثير من المصنفات والرسائل التي وضعت في القرن الثالث الهجري على وجه الخصوص.

ومن أبرز النصوص التي وصلتنا في الرد على الشعوبية، ردود الجاحظ، وابن قتيبة، وهما قطبان من أقطاب الأدب والفكر في زمانهما، وقد حصرا مهمهما في الدفاع عن العرب دون الإساءة إلى الشعوب الأخرى، ودون الوقوع في مشكلة المنطلق العرقي الذي وقعت فيه الشعوبية ، وستكشف المباحث التالية قدراً صالحاً من تفاصيل هذا الجدل الحضاري.

(1) حجاب، محمد نبيه (1961). مظاهر الشعوبية في الأدب العربي حتى نهاية القرن الثالث الهجري، ط 1، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، ص 45.

(2) الجاحظ ، عمرو بن بحر (2010) البيان والتبيين، تحقيق وشرح : عبدالسلام هارون ، ط 1 ، مكتبة ابن سينا للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ج 1، ص 54.

الفصل الأول

خطاب الحجاج في النثر العربي

(قضية الشعوبية)

- بنية الحجاج وأركان العملية الحجاجية
- آليات الحجاج في الردّ على الشعوبية
- الحجاج : صوره وأنواعه

مدخل

تطوّرت البلاغة العربية في مراحلها التأسيسية المبكرة ضمن بيئات وسياقات ثقافية وفكرية زاخرة بالحجاج والجدل والمناظرات، وقد اتصل جانب من ذلك الحجاج بقضية الشعوبية، سواء من طرف المهاجمين أو المدافعين، فكلا الطرفين أسهم في تطوير الحجاج عبر تفهم مطالب العملية الحجاجية، وأركان الجدل بوجه عام، ومن خلال تطوير آليات الحجاج، وابتداع الحجج بأشكالها وصورها المختلفة. وقد أعطى هذا المنحى اللغة والبلاغة دفعات حيوية تضمنت دخولهما في معترك يقتضي التجديد والتطوير في كل الاتجاهات العقلية واللسانية.

ولعل النصين اللذين اختارهما هذا البحث من أهم النصوص التي تمثل جانباً من ذلك النشاط في القرن الثالث الهجري، ونعني نص (كتاب العصا) للجاحظ، وهو يمثل فصلاً مهماً من فصول كتاب (البيان والتبيين)، ونص (كتاب العرب أو الرد على الشعوبية) لابن قتيبة، فقد تضمن النصان نموذجاً رفيعاً للردود على اتهامات الشعوبية وادعاءاتها، بل وثق النصان -إلى جانب الحجج والامتون الدفاعية - أهم التهم والدعاوى التي أُلِف الشعوبيون الاحتجاج بها في سبيل الغرض من مكانة العرب وازدراء ثقافتهم. وسنهتم في هذا المقام بدراسة الحجاج في " قضية الشعوبية " من حيث البنية العامة وأركان العملية الحجاجية، وآليات الحجاج، وأنواع الحجج وأهم صورها، كما تبدّت في النصين المرجعيين اللذين يمثلان صورة الجدل في قضية الشعوبية أكمل تمثيل.

وننطلق في هذا الفصل اعتماداً على ما بيّناه في التمهيد من أن الحجاج "جنس خاص من الخطاب، يبني على قضية أو فرضية خلافية، يعرض فيها المتكلم دعواه مدعومة بالتبريرات، عبر سلسلة من الأقوال المترابطة ترابطاً منطقياً، قاصداً إلى إقناع الآخر بصدق دعواه والتأثير في موقفه أو سلوكه تجاه تلك القضية" (1).

وعندما نسترجع بنية النصين، موضع الاهتمام والتحليل، في ضوء مفهوم الحجاج، ندرك أنهما ينطويان على أساليب وآليات وتقنيات حجاجية متنوعة، فضلاً عن أن الجاحظ وابن قتيبة يمثل كل منهما مذهباً أو اتجاهاً فكرياً ينطلق منه صاحبه، ويتخذ مصدره لتصوره ورؤيته التي يستمد منها منطق حجاجه وتفكيره. وهما فوق ذلك من أهل اللغة والبلاغة والكلام، ممن يتوخّون حسن الاختيار، ودقة الانتقاء، والمعرفة الدقيقة بمواقع الحجج ومواقعها.

(1) العبد، محمد (2005). النص والخطاب والاتصال، ط 1، الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي، القاهرة، ص 189.

فالجاحظ (ت 255هـ) رئيس فرقة معتزلية عرفت باسمه (الفرقة الجاحظية) ⁽¹⁾، وهو خير من يمثل المتكلمين في زمن ازدهار علم الكلام، جمع في شخصه كل مقومات الاعتزال من فصاحة وبيان وقدرة على الجدل والاقناع، وبراعة في الحجاج والمناظرة، وقد وجهها في الدفاع عن العرب والنيل من خصومهم، ودفاعه عن العرب هو دفاع عن لغتهم ولغة القرآن، لذلك تصدى للشعوبية الذين "قد شفى الصدور منهم طول جثوم الحسد على أكبادهم، وتوقد نار الشنآن في قلوبهم، وغليان تلك المراحل الفائرة، وتسعر تلك النيران المضطربة" ⁽²⁾.

أما ابن قتيبة (ت 276هـ) فقد كان إماماً من أئمة الأدب، وعالماً محيطاً بمعارف عصره الأصيل منها والدخيل، وله اتصال وثيق بالعلوم الدينية واللغوية، وله عناية بالقرآن الكريم والحديث الشريف، فكان قطباً من أقطاب مدرسة السنة وأهل الاتباع، مع ما أفاده من آثار الجاحظ وغيره من أهل العقل، فكان واحداً من رواة اللغة والأدب، وفوق هذا كان كاتباً وناقداً، يرى في الدفاع عن الثقافة العربية دفاعاً عن الإسلام نفسه، وقد عده ابن تيمية حجة في الأدب واللغة، وقال عنه: "هو لأهل السنة مثل الجاحظ للمعتزلة، فإنه خطيب السنة كما الجاحظ خطيب المعتزلة" ⁽³⁾.

(1) ابن خلكان، (1972)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، د. ط، دار صادر، بيروت، ج 3، ص 470.

(2) البيان والتبيين، ج 3، ص 19.

(3) ابن تيمية، أبو العباس تقي الدين أحمد (2010). تفسير سورة الاخلاص، تحقيق طه يوسف شاهين، د ط، دار الطباعة المحمدية، القاهرة، ص 200.

المبحث الأول

بنية الحجاج وأركان العملية الحجاجية

يقودنا البحث عن البنية الحجاجية إلى التفكير في بنية النص، وهذا يطرح إشكالية البنية وعلاقتها بالنص، وبالحجاج الذي هو جوهر اهتمامنا في هذا المقام، فالبحث في أسلوب النص هو بحث في بنيته وفي خصائصه الألسنية⁽¹⁾.

أما مفهوم البنية فيمكن إدراكه انطلاقاً من أن: " البنية: مجموعة العلاقات، وأن هذه العلاقات تتوقف فيها الأجزاء أو العناصر على بعضها من ناحية، وعلى علاقتها بالكل من ناحية أخرى"⁽²⁾. وعلى هذا التعريف يمكن عدّ البنية مجموعة من العلاقات التي تربط بين العناصر المشكلة لتلك البنية من جهة، ومن جهة أخرى تربطها بالكل الذي هو النص، أو يمكن القول: إن النص بنية أو كل يتكوّن من مجموعة مدارات تحكمها قوانين ضابطة، تجعل منه كلاً منتظماً مترابطاً منسجماً. ويتعلق مفهوم البنية بمفهوم السياق ولا ينفصل عنه، ذلك أن العلاقات لا تتحدد إلا ضمن النظام والسياق الذي يحكمها أو المقام الذي يتضمنها، فهي تجمع العناصر والمكونات اللغوية، وترتبط بينها بما يوافق السياق اللغوي أو المقام الخطابي⁽³⁾.

ويختلف النص الحجاجي عن غيره من النصوص، فله خصائصه ومميزاته الفارقة، وبذلك فإن بنية هذا النص تكون بنية خاصة ومميزة لها أساليبها التي تتسجم مع طبيعة النص الحجاجي ومقاصده وسياقاته، بحيث يؤدي هذا النص أغراض المتكلم أو المحاجّ وغاياته. ويقتضي البحث في بنية النص الحجاجي بالضرورة البحث في الحجج التي يبنى عليها، والعلاقات التي تحكمها، والروابط التي اشتملت عليها، من أجل تحقيق أهداف الخطاب الحجاجي، وأبرز تلك الأهداف توجيه المتلقي ليقنتع ويدّعن لما يقوله ويطلبه المتكلم.

وبالنظر إلى نصّي الجاحظ وابن قتيبة في ضوء هذه الاعتبارات، فإنهما نصّان حجاجيان بوضوح؛ فالهدف الإقناعي الذي يتضمن السعي لإقناع الخصم وإفحامه بالحجّة شديد الجلاء فيهما، وكذلك محاولة كسب تأييد المتلقي في شأن قضية أو فعل مرغوب فيه. وكذلك تحقيق إقناع المتلقي (القارئ) بإشباع مشاعره وفكره معاً، ليتقبّل القضية ويوافق على الفعل موضوع الخطاب .

(1) مرتاض، عبد الملك (1983). النص من أين وإلى أين؟، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ص 64 .

(2) فضل، صلاح (1997). نظرية البنائية في النقد الأدبي، ط3، منشورات الآفاق الجديدة، بيروت، ص 180.

(3) المرجع نفسه ، ص 180 .

وهذا ما يجعل من الحجاج البلاغي خطاباً موجهاً إلى العقل والقلب معاً، بجمعه بين مضمون الحجة العقلي وصورها البيانية واللغوية، أو ضمّه التبرير العقلي إلى الأدوات التعبيرية ، لأن البلاغة لا تصل إلى الإقناع والإفهام والتأثير إلا مع وجود الحجج الكافية، كما تنهض الصور والأساليب البلاغية بوظيفة الإيصال الجمالي التي تستدعيها عملية التلقي، وتقتضيها العلاقة بين أطراف العملية الحجاجية وأركانها. لكن صور البيان وتقنياته التعبيرية وحدها غير قادرة على الصمود والتماسك أمام نفاذ العقل؛ ولذلك فلا بد في الخطاب الحجاجي من أن يعزّز التعبير اللغوي بحجج عقلية قوية تكشف المعتقد، وتزيل الشك، وتحقق الإقناع والتأثير.

وكذلك كان حال الجاحظ وابن قتيبة في رديهما على مطاعن الشعوبية اتجاه العرب، إذ جعلاً نفسيهما مدافعين عن حضارة العرب وثقافتهم، وعن لسانهم وقوة بلاغتهم وبيانهم⁽¹⁾، كما قدّما صورة لا بأس بها للخصوم أو للحركة الشعوبية نفسها، وسمحت لهما طبيعة الخطاب الحجاجي بسوق كثير من المزاعم التي احتج بها الشعبويون، ثم تتبعا أقوال أولئك الشعبويين قولاً قولاً، ونقضا منطقهم بالدحض والتفنيد والإبطال.

أما الشروط والأركان العامة للحجاج ، يمكن تلخيصها كالآتي :

- لا بد للحجاج من جانبين (مدع ومانع تتبدل أدوارهما بتطور المناظرة) .
- لا بد له من دعوى (القضية و موضوع الحوار) .
- ولا بد للحجاج من مآل يكون بعجز أحد الجانبين (الإفحام والإلزام) .
- لكل من الجانبين آداب ووظائف⁽²⁾.

وقد حقق الجاحظ وابن قتيبة وجود هذه الشروط في حجاجهما مع الشعوبية:

- فريقا الحجاج:

في النصين فريقان أو جانبان متناقضان مختلفان؛ الفريق الأول هو فريق العرب الذي يمثله أو يتبنّى الدفاع عنه الجاحظ وابن قتيبة. والفريق الثاني الخصم أو المختلف هو فريق الشعبويين المناهضين للحضارة والثقافة العربية. ويظهر صوت كل فريق واضحاً في النصين، أي أنهما لا يخفيان الصوت المعارض وإنما يكشفان عنه بوضوح، ويمثله في نسيج النص الحجاجي بوضوح، حتى إن الجاحظ يطيل في إيراد أقوال الشعبويين ويفرّع في حججهم أشد ما يمكنه الإطالة ، قبل أن ينقلب إلى موقع المدافع والمنافح، فينتقل إلى الدور الآخر مفككاً ما أورده من مزاعم ودعاوى.

(1) انظر: جغام، ليلي (2013). الحجاج في كتاب البيان والتبيين للجاحظ، أطروحة دكتوراه ، جامعة محمد مخير، الجزائر، ص197.

(2) عبد الرحمن، طه (2000) . في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ص 74 ، وانظر : عادل ، عبد اللطيف (2013) ، بلاغة الاقناع في المناظرة ، ط 1 ، منشورات صفاف ، بيروت ، ص 171 .

الدعوى :

وتتمثل الدعوى في أركان فرعية أو مكونات تفصيلية أولها: الادعاء أو عرض الدعوى، والعرض بهذا الاعتبار هو ادعاء من حيث إن:

- العارض يعتقد صدق ما يعرض .
- يلزم المعارض عليه بتصديق عرضه .
- يقيم الأدلة على مضامين عرضه .
- يوقن بصدق قضاياء دليله وبصحة تدليله ⁽¹⁾ .

وبالعودة إلى موضوع بحثنا نجدنا متوفرة في عرض دعاوى الشعوبية اتجاه العرب ، حيث يعتقدون بصحة تفوقهم على العرب، وهو على وجه التقريب ما يتمثل في عرض الجاحظ وابن قتيبة لجملة مزاعم الشعوبيين اتجاه العرب، ومركزها الانتقاص من العرب والخط من شأنهم، عبر تقديم غيرهم من الناحية الحضارية والثقافية عليهم. والركن الثاني التدليل أو الإثبات، وعادة ما يورد الجاحظ الأدلة التي يحتج بها الشعوبيون، في إثبات دعواهم. أما الركن الثالث فهو ما يسميه الكلاميون: المنع ⁽²⁾ ويشمل كل أساليب الدحض والتفنيد التي يعتمد عليها في إبطال الدعوى ونفي أدلتها وتفنيدها.

المآل:

ويتمثل المآل في ما يقدمه الجاحظ وابن قتيبة، اعتماداً على منطق العقل وقوة النقل، من حجج ودفاع يؤول بالجدل إلى عجز الشعوبية عن الردّ لضعف أدلتها ⁽³⁾.

آداب الحجاج:

وقد اتبع الجاحظ وابن قتيبة آداب الحجاج، وتمثل ذلك في إفساح المجال أمام الخصوم لتظهر أصواتهم معبرة عن حججهم ومزاعمهم، فما أكثر ما يقول الجاحظ (تقول الشعوبية...) أو: قالوا... ثم يورد أقوالهم واتهاماتهم بوضوح وتفصيل لا يكاد يغادر منها شيئاً ، قبل أن يتولى الردّ عليها. ولعل طبيعته الجدلية والكلامية قد هيأت له هذه الروح "الديمقراطية" في سماع صوت الخصم وعدم إغفال أقواله فهو لا يخشى تلك الأقوال، بل يجد لذة في عرضها، لأنها تساعد على شحذ ذهنه المتوقّد للرد عليها بالتفنيد والنقض. أما ابن قتيبة فقد بدا أقل إيراداً منه لأقوال الخصوم، فكانت طريقته اختصار تلك الأقوال والإلماح إليها دون تفصيل .

(1) المرجع نفسه، ص 38 - 39 .

(2) المرجع نفسه، ص 75 .

(3) انظر: جغام، ليلي (2013). الحجاج في كتاب البيان والتبيين للجاحظ، ص 197.

المبحث الثاني

آليات الحجاج في قضية الشعوبية

نستأنف في هذا المبحث ما بدأناه في المبحث السابق حول أركان العملية الحجاجية، فأكثر ما تتمثل آليات الحجاج في ما يجري بين أطراف الدعوى، وفي عرض الدعوى مع ما يسندها من أدلة، ثم ما يعتمد إليه المحاجج من الاعتراض والسعي إلى الدحض والنقض. وصولاً إلى نتيجة محددة يريد بها الجاحظ أو ابن قتيبة، وهي لا تتمثل فقط في نقض اتهامات الشعوبية، وإنما التنبيه إلى خطر هذا الاتجاه وإلى موقفه السلبي من مختلف جوانب الحضارة والثقافة، وما دعاواه من كل لون إلا أمثلة أو جزئيات على موقف مناهض للثقافة العربية بكل تجلياتها.

ونميز في حجاج الجاحظ مع الشعوبية الرد على دعاوى ثلاثة، نحاول تحليلها والكشف

عن آليات الحجاج من خلال التدليل على بعضها بما جاء في كتاب " العصا " وهي كالاتي:

- دعاوى تتركز بثقافة الكلام (شفاهية العرب): وتتمثل في نقد الخطابة العربية.
- دعاوى تتعلق بانقراض خبرة العرب في الحرب والفروسية، والسخرية من طرقهم في القتال ومن اتخاذهم للسلاح.
- دعاوى ثقافية وحضارية تخص سيما العرب بعمامة، كلبس العمائم والزيّ.
- أما ما عرض له ابن قتيبة في كتاب العرب فيشمل عرض الدعوى التالية والرد عليها:
- ما يتعلق بالحسد اتجاه العرب.
- وما يرتبط بالأنساب؛ نسب العجم إلى إسحاق، ونسب العرب إلى إسماعيل.
- وما يتعلق بفروسية العرب وحروبهم وشجاعتهم وشرفهم.
- الدعوى الشعوبية : نفي بلاغة الخطابة العربية

وبالعودة الى نص الجاحظ نجد أن مطاعن الشعوبية كانت متنوعة ومختلفة، هدفها التقليل من شأن العرب ومكانتهم على الصعيد الثقافي والمعرفي مقارنة مع الشعوب الأخرى، وبين الجاحظ مطاعن الشعوبية التي حملتها ضد العرب، ومن أبرز ذلك اتخاذهم : " المخصرة عند مناقلة الكلام، ومساجلة الخصوم بالموزون والمقفى، والمنثور الذي لم يقف، وبالأرجاز عند المئح، وعند مجاثاة الخصم، وساعة المشاولة، وفي نفس المجادلة والمحاورة، وكذلك الأسماع عند المنافرة والمفاخرة، واستعمال المنثور في خطب الحمالة، وفي مقامات الصلح وسلّ السخيمة، والقول عند المعاقدة والمعاهدة، وترك اللفظ يجري على سجيته وعلى سلامته، حتى يخرج على غير صنعة ولا اجتلاب تأليف، ولا التماس قافية، ولا تكلف لوزن، مع الذي عابوا من الإشارة بالعصي، والاتكاء على أطراف القسي، وخذّ وجه الأرض بها .. " (1).

(1) البيان والتبيين، ج 3، ص 3 - 4.

أدلة الدعوى من منظور الشعوبية :

ما زال الجاحظ يعرض مزاعم ومطاعن الشعوبية اتجاه العرب، فبعدما حصر هذه المزاعم ، نراه يقدم الأدلة والبراهين التي اعتمدت عليها الشعوبية في مزاعمهم، وفي ذلك يقول الجاحظ على لسان الشعوبية : " قالوا: والخطابة شيء في جميع الأمم، وبكل الأجيال إليه أعظم الحاجة، حتى إن الزنج مع الغثارة، ومع فرط الغباوة، ومع كلال الحدّ وغلظ الحسّ وفساد المزاج، لتطيل الخطب، وتفوق في ذلك جميع العجم، وإن كانت معانيها أجفى وأغلظ، وألفاظها أخطل وأجهل. قد علمنا أن أخطب الناس الفرس وأخطب الفرس أهل فارس، وأعذبهم كلاماً وأسهلهم مخرجاً وأحسنهم دلاً، وأشدّهم فيه تحكماً، أهل مرو، وأفصحهم بالفارسية الدرية، وباللغة الفهلوية، أهل قسبة الأهواز ... " (1) .

ويبين الجاحظ وجهة نظر الشعوبية بالخطابة العربية، بأنها ليست بالميزة البارزة، ولا بالأمر المميز، وليست خاصة بالعرب دون غيرهم، فجميع الشعوب والأمم تتحدث وتخطب بأسننتها ولغاتها، ولعل التمثيل بأمة الزنج يهدف إلى تعميم الخطابة في كل مستويات الأمم وطبقاتها، إذ لا تخلو أمة من الخطابة مهما يكن حظها الحضاري، حتى إن الزنج مع كل ما عرفوا به من الجهل يكتبون الخطب ويطلقونها. والمقصد من هذا الدليل - من منظور الشعوبية - أن التفوق في الخطابة ليس أمراً محسوماً، وأنه ليس دليلاً على التفوق الحضاري والثقافي كما يزعم العرب، وإنما هي مهارة لسانية عامة لا تكاد تدل عند الشعوبيين على تفوق، لوجودها عند مختلف الأمم. وأكثر من هذا أنهم قدّموا خطابة الفرس على العرب، فأطاحوا بناحية مميزة يعتز بها العرب، ويفخرون بتفوقهم فيها مما يتمثل في بيانهم وفي طرق استعمالهم للغة.

وفي قول الجاحظ إشارة إلى ذلك: " قالوا: ومن أحب أن يبلغ في صناعة البلاغة، ويعرف الغريب، ويتبحر في اللغة، فليقرأ كتاب (كاروند). ومن احتاج إلى العقل والأدب، والعلم بالمراتب والعبر والمثلّات، والألفاظ الكريمة ، والمعاني الشريفة ، فلينظر في سير الملوك " (2) . وهي آثار من الثقافة الفارسية التي يقدّمها الشعوبيون على غيرها من الثقافات، وفي هذا المنحى تتضح الشعوبية في إطارها الثقافي الذي يتجلى في صراع ثقافتين كبيرتين : الثقافة العربية والثقافة الفارسية، وإذا كان من سبيل للانتقاص فإنه يتجه إلى الماضي، أي ماضي العرب في جاهليتهم وعصورهم الأولى التي يعتز العرب بما شهدته من صولات شعرية وخطابية تتجلى فيها مهارة الخطابة وبيان اللسان.

(1) البيان والتبيين، ج 3، ص 8 .

(2) المصدر نفسه، ج3، ص 14 .

ولعل فن الخطابة العربية كان من أبرز التهم والمطاعن التي ركز عليها الشعوبيون من أية تهم أخرى؛ لأن الإطاحة بها تعني الإطاحة بركن أساس من أركان ثقافة العرب ومواقع قوتهم وتفردهم. يقول الجاحظ على لسان الشعوبية: " فهذه الفرس ورسائلها وخطبها، وألفاظها ومعانيها ، وهذه يونان ورسائلها وخطبها، وعللها وحكمها، وهذه كتبها في المنطق التي قد جعلتها الحكماء، بها يعرف السقم من الصحة، والخطأ من الصواب، وهذه كتب الهند في حكمها وأسرارها، وسيرها وعللها. فمن قرأ هذه الكتب، وعرف غور تلك العقول، وغرائب تلك الحكم، عرف أين البيان والبلاغة، وأين تكاملت تلك الصناعة " (1) ، فالشعوبية تكشف عن مصادر وموارد مختلفة عن موارد العرب ، وتزعم أن تلك الموارد هي أساس المعرفة والثقافة ، وتبعد بذلك عن موارد العرب التي ترتبط بتراثهم، بل تكاد تلغي ما يتفردون فيه، وما يتوارثون روايته ، فلا يرون فيه شيئاً ذا بال مقابل الإرث الثقافي الأعجمي .

" وإلى هذا المدى تظل مزاعم الشعوبية مطروحة حول تعميم طبائع الفن القولي بين كل الأمم، وإن كانت النعرة القومية غير خافية في تفصيل القول حول الحضارة الفارسية، وصور الإعجاب باللسان الفارسي بيانا وفصاحة وبلاغة وعمقا وعذوبة، وكأن شيئاً من ذلك لم يبق لغير الفرس من بقية الأمم " (2) .

الاعتراض على القضية .

الاعتراض أو المنع " هو نقيض ما ادعاه المعلل واستدل عليه، أو ادعاء ما يساوي نقيضه، أو ادعاء الأخص منه، مع الاستدلال على ذلك " (3).

واستخدم الجاحظ في رده على الشعوبية أكثر من طريقة واستراتيجية، والتي تميزت جميعها بفتح المجال أمامهم حتى يقدموا أقوالهم و أدلتهم وبراهينهم، ثم يقوم على نفي مزاعمهم بالحجة والدليل.

ولما مست الشعوبية البلاغة والخطابة، ردّ الجاحظ بتأليف كتاب البيان والتبيين الذي يمثل برمته دفاعاً طويلاً عن البيان العربي بكل ألوانه وأنواعه، وخصوصاً ما يتصل منه بماضي العرب وعهدهم غير البعيد، أي العهد الشافهي قبل عهد الكتابة في عصر الجاحظ وقبله بقليل .

(1) البيان والتبيين، ج 3، ص 14 .

(2) النعمي ، حسن بن أحمد (2009) الأدب والدفاع عن الهوية : موقف الجاحظ من الشعوبية أنموذجاً ، د . ط مجلة الجمعية العلمية السعودية للغة العربية ، السعودية ، ص 360 .

(3) عبد الحميد، محمد محي الدين (2006) . رسالة الأدب في علم آداب البحث والمناظرة ، ط1 ، دار الطلائع للنشر والتوزيع، القاهرة ، ص 722.

ينتقل الجاحظ من عرض هذه المزاعم إلى الرد عليها ودفعها بحجج متعددة، حيث يقول: "وجملة القول أنا لا نعرف الخطب إلا للعرب والفرس. فأما الهند فإنما لهم معان مدونة، وكتب مخددة، لا تضاف إلى رجل معروف، ولا عالم موصوف، وإنما هي كتب متوارثة، وآداب على وجه الدهر سائرة مذكورة .

ولليونانيين فلسفة وصناعة المنطق، وكان صاحب المنطق نفسه بكّي اللسان، غير موصوف بالبيان، مع علمه بتميز الكلام وتفصيله ومعانيه، وبخصائصه. وهم يزعمون أن جالينوس كان أنطق الناس، ولم يذكره بالخطابة، ولا بهذا الجنس من البلاغة، وفي الفرس خطباء، إلا أن كل كلام للفرس، وكل معنى للعجم، فإنما هو عن طول فكرة وعن اجتهاد رأي، وطول خلوة، وعن مشاورة ومعاونة، وعن طول التفكير ودراسة الكتب، وحكاية الثاني علم الأول، وزيادة الثالث في علم الثاني، حتى اجتمعت ثمار تلك الفكر عند آخرهم" (1).

إنه ابتداء يعود إلى الثقافات التي احتجوا بها، فيحاول أن يصنّفها تصنيفاً مختلفاً عما ذهبوا إليه، وهذا التقسيم يمكن أن يعزز حججه ويدحض حججهم، وذلك من منظور الشفاهية والكتابية: "فالثقافات: الهندية واليونانية والفارسية ثقافات كتابية، تعتمد أكثر ما تعتمد على الكتب المدونة وعلى توارث المعرفة المدونة وتدارسها. أما الثقافة العربية - في ماضيها على الأقل - فتثقافة شفاهية لا تعتمد على التدوين والكتابة" (2).

ولو دققنا النظر هنا لوجدنا الجاحظ "يميز بين معرفة القواعد الشفاهية والأداء الشفاهي الفعلي، فالثقافة اليونانية في نظره قد عرفت قواعد تمييز الكلام وتفصيله، ولكن هذا المعرفة المدونة المبنية على التأمل لا تضمن أن يبلغ الأداء الشفوي الجودة المطلوبة. وفي نظر الجاحظ كان أرسطو نفسه "بكّي اللسان، غير مرصوف بالبيان" من الناحية الشفاهية، فهو يعرف القواعد ويعلمها للناس ولكنه لا يؤديها تأدية مناسبة. وضمننا نستطيع أن نفهم أن الدربة الشفوية لا تتعلم من الكتب وإنما لها قواعد وتربية مختلفة وعلى رأسها مسألة الطبع والموهبة" (3) وهو ما أثبتته للعرب دون غيرهم. متدرجاً في تحويل ما عدّته الشعوبية نقصاً فيهم، إلى ميزة تدل على نباهتهم وتفوقهم.

(1) البيان والتبيين، ج3، ص 27 .

(2) عبيد الله، محمد (2014) . الوعي بالشفاهية والكتابية عند العرب - قراءة في مصنفات الجاحظ -، مجلة حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، الكويت، الحولية: 34، الرسالة: 399، ص 29 .

(3) عبيد الله، محمد (2014) . الوعي بالشفاهية والكتابية عند العرب ، ص 29 .

ميز الجاحظ العرب بالطبع والقدرة على الارتجال وسائر مهارات " الشفاهية "، فجعلهم سريعى البديهة فى كل شىء، وأهل ارتجال كأنه إلهام ، يقول: " وكل شىء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال، وكأنه إلهام، وليست هناك معاناة ولا مكابدة، ولا إجابة فكر ولا استعانة، وإنما هو أن يصرف وهمه إلى الكلام، وإلى رجز يوم الخصام، أو حين يمتح على رأس بئر، أو يحدو ببعير، أو عند المقارعة أو المناقلة، أو عند صراع أو فى حرب، فما هو إلا أن يصرف وهمه إلى جملة المذهب، وإلى العمود الذى إليه يقصد، فتأتى المعانى أرسالا، وتنتال عليه الألفاظ انثيالاً، ثم لا يقيد على نفسه، ولا يدرسه أحداً من ولده " (1).

فالجاحظ يقارن هنا بين الثقافة العربية والثقافات الأخرى، ويميز الثقافة العربية بأنها لا تحتاج إلى تحضير مسبق وتهذيب وإعداد ومراجعة للأفكار، كغيرها من الثقافات "الكتابية"، وبالذات الثقافة الفارسية التى تحتاج إلى تكلف وتصنع وتجهيز وتحضير مسبق وضعف المقدرة على الارتجال. وأشار إلى أن ذلك صادر عن طبع فيهم غير متكلف فى عادة كلامهم، فقال: "وكانوا أميين لا يكتبون، ومطبوعين لا يتكلمون، وكان الكلام الجيد عندهم أظهر وأكثر، وهم عليه أقدر، وله أقر، وكل واحد فى نفسه أنطق، ومكانه من البيان أرفع، وخطبائهم للكلام أوجد، والكلام عليهم أسهل، وهو عليهم أيسر من أن يفتقروا إلى تحفظ، ويحتاجوا إلى تدارس، وليس هم كمن حفظ علم غيره، واحتذى على كلام من كان قبله، فلم يحفظوا إلا ما علق بقلوبهم، والتحم بصدورهم، واثصل بعقولهم، من غير تكلف ولا قصد ولا تحفظ ولا طلب. وإن شيئاً هذا الذى فى أيدينا جزء منه، لبالمقدار الذى لا يعلمه إلا من أحاط بقطر السحاب وعدد التراب.." (2).

وحديث الجاحظ هذا ينبغى أن يفهم فى سياقه الحجاجى المتصل بقضية الشعوبية والرد عليها بمهارة كلامية معروفة عن الجاحظ، ولذلك " لجأ إلى فكره وإلى قدرته على الاحتجاج والجدل، فكيف تلك المعارف ليصل إلى دفاع متين عن الثقافة العربية دون أن يضطر إلى نفي الشفاهية عنها، ودون أن يحاول إثبات الكتابة للعرب، وقد استطاع الجاحظ بقدرته على الاحتجاج والجدل أن يقلب الموقف لصالح العرب متخذاً من بداوتهم وأميته وانعدام الآثار المكتوبة عندهم مع قدرتهم على الخطابة وتفوقهم فيها مثالا حياً على كفاية الطبع لجبر النقص فى المحصول الثقافى، ليتحول هذا النقص فى ثقافتهم إلى اعتراف بالزيادة فى موهبتهم، ويتحول اعتماد الفرس على تراثهم الثقافى إلى سبب للغضب منهم، لأنهم: ممن حفظ كلام غيره واحتذى على كلام من قبله " (3).

(1) البيان والتبيين ، ج3، ص 28 .

(2) المصدر نفسه، ج3، ص 28- 29 .

(3) عبيد الله، محمد، الوعي بالشفاهية والكتابية عند العرب، ص33. وراضى، عبد الحكيم، الأبعاد الكلامية والفلسفية فى الفكر والنقدى عند الجاحظ، ص68.

وبين الجاحظ بعد ذلك أنواعاً من صناعة الكلام ادّعاها للعرب ، شاهداً على بيان لسانهم، وقوة فصاحتهم ، فقال: " ونحن - أبقاك الله - إذا ادعينا للعرب أصناف البلاغة من القصيد والأرجاز، ومن المنثور والأسجاع، ومن المزدوج وما لا يزوج، فمعنا العلم أن ذلك لهم شاهد صادق من الديباجة الكريمة، والرونق العجيب ، والسبك والنحت، الذي لا يستطيع أشعر الناس اليوم، ولا أرفعهم في البيان أن يقول مثل ذلك إلا في اليسير، والنّبذ القليل " (1).

ثم انتنى للتشكيك في ما يزعمه الفرس من آثار مكتوبة ترجمها أدباؤهم إلى العربية، وهو تشكيك يهدف منه إلى توجيه ضربة أخرى إلى تلك الآثار التي يستندون إليها في تقوية مكانة ثقافتهم ، فقال : " ونحن لا نستطيع أن نعلم أن الرسائل التي بأيدي الناس للفرس، أنها صحيحة غير مصنوعة، وقديمة غير مولدة، إذ كان ابن المقفع وسهل بن هارون، وأبي عبيد الله، وعبد الحميد غيلان، يستطيعون أن يولدوا مثل تلك الرسائل، ويصنعوا مثل تلك السير" (2).

فإذا كانت تلك الرسائل والسير والكتب منحولة أو مزورة فلا يصح الاستشهاد بها، ولا يصح أن يستدل ببلاغتها، فقد يعود ذلك إلى صنيع ابن المقفع وغيره من البلغاء الذين أنقنوا العربية وليس إلى أصلها الفارسي.

وآخر ما ردّ به على هجومهم ودعواهم ما يمكن تسميته بدليل التجربة أو المعاينة، يقول: " إنك متى أخذت بيد الشعبي فأدخلته بلاد الأعراب الخلص، ومعدن الفصاحة التامة، ووقفته على شاعر مقلق، أو خطيب مصّقع، علم أن الذي قلت هو الحق، وأبصر الشاهد عياناً . فهذا فرق بيننا وبينهم " (3) . أي أن الشعبيين يحتجون بماض مبهم ظني لا نستطيع التوثق من صحته، أما دليلنا - دليل المدافعين عن العرب - فما زال قائماً في الواقع والحياة ، ولو طلبوه لوقفوا عليه، ولما استطاعوا له ردّاً، مما يتمثل في بيان الأعراب ولغتهم، وهو يمثل نموذجاً قريب الشبه بالبيان العربي القديم.

وبعد أن فرغ من تتبع أقوالهم، وفصل الأمر في الرد عليها، انتقل بخطابه إلى المتلقي، وكأنه في مناظرة يواجه فيها خصومه ، ولا يريد أن يقنعهم فحسب بل يريد أن يستميل جمهور المتلقين ليكسب أكبر عدد من المؤيدين، فهذا الخطاب الأخير موجه إلى هذا الجمهور الافتراضي أكثر مما هو موجه إلى الشعبيين أنفسهم، ولذلك انتقل من الخاص إلى العام، من الاعتراض على حججهم في ما يخص البلاغة، إلى وصف سلوكهم، وذكر خصالهم وقدح نحلّتهم، وكأنه يقول بأن تلك التفاصيل والحجج تخفي ما هو أسوأ، وهو بذلك ينبّه إلى خطرهم بما يتجاوز

(1) البيان والتبيين، ج 3، ص 19 .

(2) المصدر نفسه، ج 3، ص 19 .

(3) المصدر نفسه ، ج 3، ص 19 .

الاعتراض على البلاغة وأنماط الكلام : " فتفهم عني، فهمك الله، ما أنا قائل في هذا، ثم اعلم أنك لم ترى قوما قط أشقى من هؤلاء الشعوبية ولا أعدى على دينه، ولا أشدّ استهلاكا لعرضه، ولا أطول نصبا، ولا أقلّ غُثْمًا من هذه النحلة. وقد شفى الصدور منهم طول جثوم الحسد على أكبادهم ، وتوقد نار الشنآن في قلوبهم ، وغلّيان تلك المراحل الفائرة ، وتسعر تلك النيران المضطربة . ولو عرفوا أخلاق أهل كل ملة، وزيّ أهل كل لغة وعللهم، على اختلاف شاراتهم وآلاتهم، وشمائلهم وهيناتهم ، وما علة كل شيء من ذلك، ولم اجتلبوه ولم تكلفوه لأراحوا أنفسهم ولخقت موؤنتهم على من خالطهم " (1).

وهذا الذي قاله أشبه ما يكون بالتعميم الذي يستند إلى وقائع خاصة، ولقد أخره ولم يبدأ به، كي يبدو في صورة أمثل للحجاج والجدال، وأما وقد فرغ من رد الدعوى الشعوبية، ومن إثبات البيان الشفاهي والخطابي للعرب، فلا بأس أن يضع الأمور في نصابها ويكشف عن خلفيات هذا الهجوم، ويكسب عبر ذلك مزيداً من المؤيدين.

وينكشف بوضوح مما أوردنا من حجج وأدلة ساقها الجاحظ بأسلوبه العقلي الجدلي، في مواجهة من يشكك في بيان العرب وفصاحتهم، كل ذلك بالحجة الدامغة، والمنطق المتأني، والمقارنة بين الأمم والشعوب التي احتج بها الشعوبيون أنفسهم، والجاحظ " في تتبعه الاتجاهات الثقافية و الفكرية المؤثرة في مجرى الحياة السياسية يرى الشعوبية أصلاً أولاً يهدد العقيدة الإسلامية في عصره وتهديد العقيدة يقضي على الدين من الأساس ولا يحيل كلام الجاحظ على أولية تاريخية مضبوطة بقدر ما يحيل في رأينا على أولية المنشأ الداعي إلى زحزحة الاعتقاد الراسخ في الديانة الإسلامية وقواعدها " (2).

دعوى: الانتقاص من فروسية العرب

وتتمثل مطاعن الشعوبية أيضاً في الانتقاص من فروسية العرب، والادعاء أنهم ليسوا متمرسين في فنون الحرب والقتال كما يزعمون. وقدّم الجاحظ نصّاً مفصّلاً على لسان الشعوبية، يمثل عرض الدعوى والأدلة التي ذكروها استدلالاً على رأيهم أو موقفهم . وتشمل دعواهم في هذا المجال أموراً متعددة : تشمل انتقاصهم من أنواع أسلحة العرب وطرق استعمالها وبدائيتها، كما تشمل سخريتهم من طريقة ركوب العرب لخيولهم وما اتخذوه من الركاب والسرّج، وتتسع لتصل إلى انتقاصهم من ناحية أوقات القتال وأنهم لم يكونوا يقاتلون ليلاً. وإلى انتقاصهم من ناحية تقسيمات الجيش، واتخاذ القادة والأعلام وغير ذلك من تفاصيل، يتراءى فيها ما تخترنه الحضارة الفارسية من خبرة قتالية، ومن معرفة واسعة بضروب الفروسية وفنون الحرب واستعمال السلاح.

(1) البيان والتبيين، ج 3، ص 19 / 20.

(2) القارصي، محمد علي (2006) . الرمز والمطلق في رد الجاحظ على الشعوبية ، د . ط، حوليات الجامعة التونسية ، تونس ، ص 218.

ويورد الجاحظ الأصوات المتعارضة بوضوح، ولا يقطع كلام الخصوم بل يتيح لهم أن يظهروا في نصه، ففي الاعتراض على أنواع السلاح والسخرية منها: " قالوا : وإنما كانت رماحكم من مرّان، وأسنتكم من قرون البقر، وكنتم تركبون الخيل في الحرب أعراء . فإن كان الفرس ذا سرج فسرجه رحالة من أدم، ولم يكن ذا ركاب، والركاب من أجود آلات الطاعن في رمحه، والضارب بسيفه . وربما قام فيهما أو اعتمد عليهما وكان فارسهم يطعن بالقناة الصماء، وقد علمنا أن الجوفاء أخف محملاً، وأشد طعنة. ويفخرون بطول القناة ولا يعرفون الطعن بالمطاردة، وإنما القنا الطوال للرجالة، والقصار للفرسان، والمطارد لصيد الوحش... " (1).

ويوسع لهم كي ينتقدوا اكتفاء العرب بالقتال نهاراً، والتوقف عن الغارة ليلاً، مع ما انتقدوه وعابوه من قلة معرفتهم بألوان من السلاح، فيورد على أسنتهم قولهم للعرب : " وكنتم لا تقاتلون بالليل، ولا تعرفون البيات ولا الكمين ولا الميمنة ولا الميسرة، ولا القلب ولا الجناح ، ولا الساقة ولا الطليعة، ولا النفاضة ولا الدراجة، ولا تعرفون من آلة الحرب الرتيلة ولا العرادة، ولا المجانيق " (2).

ولا يكتفي الجاحظ ببسط دعوى الشعبوية، بل يورد جملة من الأدلة على لسانها : " قالوا : والدليل على أنكم لم تكونوا تقاتلون (ليلاً) قول العامري:

يا شدة ما شددنا غير كاذبة على سخينة لولا الليل والحرم

ويدلك على ذلك أيضاً قول عبد الحارث بن ضرار :

وعمرو إذ أتانا مستميتا كسونا رأسه عضبا صقيلا

فلولا الليل ما أبوا بشخص يخبر أهلهم عنهم قليلا

وقال أمية بن الأسكر :

ألم تر أن ثعلبة بن سعد غضاب حبذا غضب الموالي

تركت مصرفا لما التقينا صريعا تحت أطراف العوالي

ولولا الليل لم يفلت ضرار ولا رأس الحمار أبو جفال (3).

(1) البيان والتبيين، ج 3، ص 10 / 11 .

(2) المصدر نفسه، ج 3، ص 11 .

(3) المصدر نفسه ، ج 3، ص 12 .

ومن المرجح أن هذه الأدلة من محفوظ الجاحظ نفسه، يقوي بها حجة خصمه، ليكون رده أبلغ، وليكون افتتاناه بالجدل أشد، فلا نحسب أن أحداً من الشعوبيين قد وصل حفظه إليها، وأكثرها من شعر المغمورين الذين لا يكادون يعرفون، فهي معرض لمرويات الجاحظ ومحفوظاته أكثر مما هي أدلة شعوبية على وجه الدقة، فهي إذن أدلة جاحظية لإحداث توازن جدلي حاجي في نصه أكثر مما هي من أدلة الشعوبية، ولكنه يعرضها بعقله الجدل وهو مطمئن إلى قدرته على ردّها بأدلة أخرى، تضعها موضعها الصحيح.

وما زال يعرض الجاحظ من اتهاماتهم أيضاً بغياب القادة والرايات أو الأعلام التي تصان في الحروب ، قالوا: " وليس لكم في الحرب صاحب علم يرجع إليه المنحاز، ويتذكره المنهزم. وقتالكم إما سلة وإما مزاحفة. والمزاحفة على مواعد متقدمة، والسلة مسارقة وفي طريق الاستلاب والخلسة " (1) .

الاعتراض على القضية

بعد سرد لأقوال ومطاعن الشعوبية جاء رد الجاحظ في اعتراضه بشأن قضية الفروسية وما يتفرع عنها من فنون الحرب والقتال يقول: " قلنا : ليس فيما ذكرتم من هذه الأشعار دليل على أن العرب لا تقاتل بالليل ، وقد يقاتل بالليل والنهار من تحول دون ماله المدن وهول الليل . والدليل على أنهم يقاتلون بالليل قول عياض السديدي :

ونحن نجلنا لابن ميلاء نحره	بنجلاء من بين الجوانح تشهق
ويوم بني الديان نال أخاهم	بأرماحنا بالسّي موت محدّق
ومنا حماة الجيش ليلة أقبلت	إياد يزجّيهما الهمام محرق

وقال آخر :

وعلى شتير راح منا رائح	بأبي قبيصة كالفنيق المقرم
يردي بشرحاف المغاور بعد ما	نشر النهار سواد ليل مظلم

وقال أوس بن حجر :

باتوا يصيب القوم ضيفا لهم	حتى إذا ما ليّ لهم أظلما
قروهم شهباء ملمومة	مثل حريق النار أو أضرم
والله لولا قرزل ما نجا	وكان مثوى خدك الأخرما
نجاك جيّاش هزيم كما	أحميت وسط الوبر الميسما " (2).

(1) البيان والتبيين ، ج 3، ص 12 .

(2) المصدر نفسه ، ج 3، ص 13 .

وما هذه الأدلة التي هي من محفوظات الجاحظ، إلا حججا وأدلة قاطعة استخدمها الجاحظ ضد الشعوبية، وتعد المعاني الشعرية من أقوى الحجج العقلية عند العرب، فقد وصف ابن قتيبة الشعر بأنه : " الشعر معدن علم العرب، وسفر حكمتها، وديوان أخبارها، ومستودع أيامها، والصور المضروب على مآثرها، والخندق المحجوز على مفاخرها، والشاهد العدل يوم النفار ، والحجة القاطعة عند الخصام " (1) .

وبما أن ثقافة الاحتجاج هي الثقافة الدارجة ، فكان من البدهي أن يحتج الجاحظ في ردّ أقوالهم بالشعر الدال، من باب المعارضة بالمثل، لأن الاتهام على لسان الشعوبية جاء مسنوداً باستدلال شعري، فذكروا في مضامين مزاعمهم ومطاعنهم شواهد الشعر، وفي خلال ذلك أيضاً تتبدى ثقافة الجاحظ في مجال المرويات الشعرية الدالة، وتتكشف جوانب من بلاغة العرب في تصوير غاراتهم ووقائعهم.

وعارض انتقاص الشعوبية من طريقة العرب في ركوب الخيل، فقال مدللاً : " وأما ذكرهم للركب، فقد أجمعوا على أن الركب كانت قديمة، إلا أن ركب الحديد لم تكن في العرب إلا في أيام الأزارقة وكانت العرب لا تعود أنفسها إذا أرادت الركوب أن تضع أرجلها في الركب، وإنما كانت تنزوا نزوا " (2) ، وزاد على ذلك محتجا بقول عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - : " لاتخور قوة ما كان صاحبها ينزو وينزع " (3) . فقد التمس قوة الدليل في "الإجماع" أي إجماع الرواة والمؤرخين للحروب وآلاتها ، ثم فرّع عن ذلك تفسيره وتعليقه لطريقة العرب في الركوب، وما تتميز به من دلالة على المهارة والقوة. وهو في ذلك ينفي دليل الخصم، ويقلب معناه، ويكشف عن جوانب دقيقة من هيات العرب وألوان حضارتهم البعيدة.

وعارض الجاحظ الشعبيين فيما أخذوه على رماح العرب، وأنها رماح بدائية تدل على قلة آلاتهم في الحرب وبساطة صناعتهم. فردّ بتعداد أنواع كثيرة من الرماح، تدل على نقیض ما ذهب إلى الشعوبية: " وأما ما ذكروا من شأن رماح العرب فليس الأمر في ذلك على ما يتوهمون. للرماح طبقات : فمنها النيزك ومنها المربعوع، ومنها الخموس، ومنها التام، ومنها الخطل وهو الذي يضرب في يد صاحبه لإفراط طوله... " (4).

(1) ابن قتيبة (1996) ، عيون الأخبار ، المحقق: لجنة بدار الكتب المصرية ، ط 2 ، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ج 2 ، ص 185

(2) البيان والتبيين ، ج 3، ص 15 .

(3) المصدر نفسه، ج 3، ص 15 .

(4) المصدر نفسه، ج 3، ص 16 .

أفاض بذكر الرماح عند العرب، وبين أنواعها، والمواضع التي يحتاجون إليها، والأحوال المختلفة التي تستعمل فيها الرماح، وكأنه وجد الفرصة سانحة لإيضاح هذا الجانب الحيوي من أحوال الغارات وأحاديث السلاح، ليدلل في ما يدل على أن حضارة العرب هي الأخرى تفيض بأحاديث البطولة وأخبار الفرسان وأنواع السلاح وأشكال الغارة، ولا يقتصر هذا الحديث على أخبار الفرس ووقائعهم القديمة.

دعوى: التحامل على العرب (الحسد)

وتتمثل مطاعن الشعوبية أيضاً في التحامل على العرب، والادعاء أنهم متساوون مع العرب، وقد كان ابن قتيبة صريحا جدا، ومباشرا في تبين الدافع الذي حمل الشعوبيين على انتهاج هذا المذهب، ألا وهو الحسد إذ يقول: " وأعاذنا الله من فتنة العصبية، وحمية الجاهلية، وتحامل الشعوبية، فإنها بفرط الحسد ، ونغل الصدر تدفع العرب عن كل فضيلة، وتلحق بها كل رذيلة ، وتغلو في القول ، وتبتهت بالكذب وتكابر العيان، وتكاد تكفر ثم يمنعها خوف السيف، وتغص من النبي - صلى الله عليه وسلم - إذا ذكر بالشجا، وتطرف منه على القذى، وتبعد من الله بقدر بعدها ممّن قرّب واصطفى " (1).

يقدم ابن قتيبة نصّا مفصّلاً على صور الحسد عند الشعوبية، و يمثل عرض الدعوى ورأيهم أو موقفهم اتجاه العرب . وتشمل دعواهم في هذا المجال أموراً متعددة: تشمل إلحاق كل الأذى والرذيلة بالعرب، كما تشمل الكذب الواضح البائن من أجل الانقاص من قيمة العرب، وتتسع لتصل إلى كفرهم بالدين الإسلامي لولا مخافتهم من السيف وغير ذلك من تفاصيل، يترأى فيها ما تختزنه الشعوبية من حقد دفين، ومن تحامل واضح اتجاه العرب.

وبهذا يزيد ابن قتيبة إلى الأسباب التي وجدناها من قبل، وذكرنا أنها دفعت العديدين من انتهاج هذه النزعة وتبنيها، مثل البحث عن المساواة التي غابت في العصر الأموي، ورغبتهم في القضاء على السيادة العربية، ولعل هذا السبب الذي ذكره ابن قتيبة فيه صدق، إذ إن الفرس وبعد أن أضاعوا مجدهم على يد العرب. الذين ارتقع شأن العرب وأصبحوا أسيادا، فمن الطبيعي أن يجد ذلك في نفوس هؤلاء الذين لم يهضموا بعد الحقائق.

(1) ابن قتيبة، عبدالله بن مسلم (2009) . رسالة العرب ، في رسائل البلغاء ، جمعه : محمد كرد علي ، ط 1 ، دار الكتاب الإسلامي ، القاهرة ، ص 361 .

الاعتراض على القضية

وجاء رد ابن قتيبة في اعتراضه الذي أعقب إيراده لأقوال الشعوبية بشأن قضية الحسد والتحامل على العرب وبعد أن دلّ ابن قتيبة على دافع الشعوبيين، وهو الحسد، واصل اعتراضه على مزاعمهم وادعاءاتهم و يقول في ذلك: " و الحسد هو الداء العياء، أول ذنب عصي الله به في الأرض والسماء، ومن تبين أمر الحسد بعدل النظر أوجب سخطه على واهب النعمة وعداوته لمؤتي الفضيلة لأن الله تعالى يقول: ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُلْحَارًا ﴾ " (1)، فهو تبارك وتعالى باسط الرزق وقاسم الحظوظ والمبتدي بالعطا، والمحسود آخذ ما أعطي وجار إلى غاية ما أجري " (2).

يبين ابن قتيبة أن الشعوبيين سيطر عليهم الحسد، وملاً نفوسهم الحقد وعداوة العرب، إذ الحسد يسلب النفوس والشعور الطيب، كما يسلب منه القناعة بالذات ، واستدل ابن قتيبة لدعم رده على الشعوبية على نوع من الحجج والتي تسمى بحجة السلطة وذلك من خلال اسشهاده من القرآن الكريم كقوله تعالى: ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُلْحَارًا ﴾ (الزخرف: 32) كما نقل أيضا عن ابن مسعود قوله : " وقال ابن مسعود : لا تعادوا نعم الله قيل ومن يعادي نعم الله قال : حاسد الناس " (3).

وزاد ابن قتيبة على ذلك محتجا بقول ابن المقفع : " الحاسد لا يبرح زاريا على نعمة الله لا يجد لها مزالا، ويكدر على نفسه ما به، فلا يجد لها طعما، ولا يزال ساخطا على من لا يتراضاه، ومتسخطا لما لا ينال فوقه، فهو مكظوم هلع جزوع، ظالم أشبه شيء بمظلوم، محروم الطلبة منعص المعيشة دائم السخطة، لا بما قسم له يقنع، ولا على ما لم يقسم له يغلب، والمحسود يتقلب في فضل الله مباشر للسرور، ممهلا فيه إلى مدة لا يقدر الناس لها على قطع وانتقاض، ولو صبر الحسود على ما به وضمير لجرنه كان خيرا له، لأنه كلما هرّ خسأه الله ، وكلما نبج قذف بحجره، وكلما أراد أن يطفئ نور الله أعلاه الله " ﴿ وَيَأْتِ اللَّهُ إِلَا أَن يُنَمَّرَ نُورُهُ وَلَوْ

كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ (4) (التوبة : 32).

(1) سورة الزخرف، الآية 32

(2) ابن قتيبة، رسالة العرب ، ص 363 .

(3) المصدر نفسه، ص 362 .

(4) المصدر نفسه ، ص 362 .

ومن المعروف أن ابن المقفع يعد من أدباء الشعوبية، وعلم من أعلامهم، ومعروف لديهم ومشهور بينهم ، فعندما يأخذ ابن قتيبة بأقواله، فهو بذلك كأنه يجعلهم على أمرين إما الأخذ بما جاء به ابن المقفع وهو بمضمونه خير " بغض الحسد "، وإما رفضه وبذلك يرفضون ذلك الخير، وهذا يدخل ويصنف بنوع من الحجاج ما يسمى بحجاج السلطة من جانب، وبجانب هذه الحجة تظهر حجة أخرى هي حجة الاتجاه وهي حجة تقوم على رفض أمر ما حتى وإن اعترف بأنه في ذاته أمر جيد ومقبول؛ لأنه سيكون الوسيلة التي توصل إلى الغاية أو الهدف الذي يسعى الخطاب إلى تحقيقه ورفض الأطروحات ما هو إلا لغاية يحاول تحقيقها، ويسعى إلى توجيه فعله في الوجهة التي تعاكس الوجهة التي تمشي فيه الأطروحات ، لأنه ربما يؤدي إلى نتائج يتحاشاها هو، ولهذا يعكس اتجاهها لأنه يرى فيها الصواب ، وخير مثال على ذلك ما ذكرناه سالفا.

وهكذا يواصل ابن قتيبة احتجاجه في ردّ أقوالهم بالشعر الدال، من باب المعارضة بالمثل، لأن الاتهام على لسان الشعوبية جاء مسنوداً باستدلال شعري، في موضع وأكثر من مكان، فذكروا في مضامين مزاعمهم ومطاعنهم شواهد الشعر، وفي خلال ذلك أي أيضاً تنبذ ثقافة ابن قتيبة في مجال المرويات الشعرية الدالة، وتتكشف جوانب من بلاغة العرب في تصوير حاجاتهم من خلال الشعر وفي ذلك يقول : " والله درّ القائل :

وإذا أراد الله نشر فضيلة * يوماً أتاح لها لسان حسود**

لولا اشتعال النار فيما جاورت * ما كان يعرف طيب عرف العود " (1).**

اختتم ابن قتيبة هذا الباب من سوق الأدلة القرآنية وأقوال المعروفين والمشهورين والأبيات الشعرية حتى يزيد من قوة حجته ، ويدحض مزاعم الشعوبية ومطاعنهم ضد العرب .

(1) ابن قتيبة، رسالة العرب ، ص 362 .

المبحث الثالث

أنواع الحجج وصورها

يقتضي البحث في البنية الحجاجية في الخطاب تحليل الحجج المستخدمة فيه؛ لأنها مدار الحجاج في أي خطاب. والمتأمل في نصوص الحجاج عند الجاحظ وابن قتيبة، في معرض ردهما على مطاعن الشعوبية، يجد فيها مقومات النص الحجاجي بنية وأسلوباً، فهما ينطلقان من عرض آراء المخالفين والخصوم، ثم يسعيان من بعد إلى دحض المزاعم والدعوى بالحجة والدليل، معتمدين في ذلك مجموعة متنوعة من الحجج تتلاءم مع غاية الردّ والدحض، وتدعم من جهة ثانية تأصيل الأطروحة المضادة للخطاب الشعبي.

ويمكن القول بأن الجاحظ وابن قتيبة يمثلان جانباً حيوياً من تطور الحركة الفكرية والأدبية في العصر العباسي الذي عرف بالجدل والصراع بين الفرق والمذاهب الإسلامية إنه : " زمن صاحب الجدل والمساجلات والنظر والمقاسبات، حيث ولدت الجماعات والمدارس والاتجاهات الفكرية المتباينة التي كانت تتصارع في ما بينها على تداول الأفكار التي من شأنها حسم القضايا المرتبطة بالخلافة، والسلطة، والنص القرآني، والمعارف الوافدة " (1) . ومصنفات الجاحظ وابن قتيبة تقع في قلب هذا الجدل، وتعكس اتجاهاته وتنوع الأصوات المتجادلة فيه.

وسنحاول في هذا الموضع رصد أهم الحجج التي اعتمد عليها الجاحظ وابن قتيبة في الرد على مطاعن الشعوبية، بما يوضح جانباً مهماً من جوانب الحجاج في قضية الشعوبية وتفرعاتها الكثيرة.

أولاً : الحجج المؤسسة على بنية الواقع

يقوم هذا النوع من الحجج على ربط الأحكام المسلم بها والأحكام غير المسلم بها على عناصر تنتمي إلى كل واحد يجمع بينها، بحيث لا يمكن التسليم بإحداها دون أن يسلم بالأخرى، ومن هنا جاء وصفها بكونها حججاً اتصالية أو قائمة على الاتصال (2).

ويقتضي هذا النوع من الحجاج "ترابطاً بين عناصر الواقع الذي يركز إليه من أجل الحجاج، فاستخدام هذه الحجة يعني إذن التوضيح بصورة جلية للربط بين القضية التي يتم الدفاع عنها" (3).

(1) سرحان، هيثم (2011) . الحجاج عند الجاحظ، بحث في المرجعيات والنصيات والآليات، في : المجلة العربية للعلوم الإنسانية، العدد 115، السنة 29، مجلس النشر العلمي، جامعة الكويت، ص 56 .

(2) صمود، حمادي ، فريق البحث في البلاغة والحجاج (1998) . أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانية ، تونس، كلية الآداب منوبة ، سلسلة آداب ، مجلد 39، ص 331

(3) بروتون ، فيليب ، جيل جوتييه (2011) . تاريخ نظريات الحجاج ، ترجمة : محمد صالح الغامدي ، ط1،

مطابع جامعة عبدالعزيز ،السعودية ،ص 49 .

إذ يستطيع المتكلم عرضه كوقائع أو حقائق ، ويبني حاجه على الأطروحة التي هو بصدد إقناع المتلقي بها ودفعه ليقبل بتلك الأطروحة، فكلما رسّخ في ذهن المتلقي أو أثر عليه من خلال مطابقتها ومقاربتة للواقع بافتراض الأشياء كما يراها عياناً، أي بمنظار التصور الواقعي للأحداث والقضايا ، فإنه يصل إلى الإقناع والتأثير في المتلقي حتى يدعن له، ذلك أن ما يوافق الواقع يقبله العقل ويدعن له ببسر⁽¹⁾.

وما يميز هذا النوع من الحجاج بأنه " يتأسس على التجربة وعلى علاقات حاضرة بين الأشياء المكوّنة للعالم، فالحجاج هنا ما عاد افتراضاً وتضميناً بل أصبح تفسيراً وتوضيحاً، تفسيراً للأحداث والوقائع وتوضيحاً للعلاقات الرابطة بين عناصر الواقع وأشياءه. فالمتكلم متى اعتمد هذا الصنف من الحجج إنما يذهب في الواقع إلى أن الأطروحة التي يعرضها تبدو أكثر إقناعاً كلما اعتمدت أكثر على تفسير الوقائع والأحداث، وأن الخطاب الحجاجي يكون أنجع وأقدر على الفعل في المتلقي والتأثير فيه كلما انغrust مراجعه في الواقع وتنزلت عناصره فيما حدث وما يحدث " ⁽²⁾.

ويكثر هذا النوع من الحجج في كتاب العصا، وذلك بسبب طبيعة المباحث التي عالجه، وإمكانية ربطها بوقائع وأمثلة واقعية، فضلاً عن ارتباط الجاحظ نفسه في جانب من شخصيته الأدبية بالواقع واهتمامه بمعانيته، واختبار أفكاره الرمزية في خضمّ اليومي والواقعي، وما القصص والنماذج القصصية التي يكثر من التمثل بها إلا بعض ما يتبدى فيه هذا النوع من الحجج المؤسسة على بنية الواقع.

ولعل خير مثال على ذلك ما كان من شأن الشرقي وما شهدته من خصال العصا في كل مراحل رحلته مع التغلبي من بدايتها إلى عودة التغلبي إلى بيته.

ويظهر ذلك من خلال مزايا العصا التي ظهرت خلال رحلتهما، وأول ما ظهر من هذه المزايا ما كان من دفع الحمار وسياقته للوصول إلى المنزل فكانت هذه أول الخصال والمزايا التي شهد لها الشرقي بالعصا، وبعدها ماكان من الاتكاء بالعصا والاعتماد عليها للوصول للغاية والهدف، ثم انتقل إلى ما للعصا من وسيلة دفاع وأداة وسلاح، وبعدها استخدامها كوسيلة للطبخ ، وهكذا حتى أتم ثمانية خصال، وانتهى كلامه بقول التغلبي: " والله لو حدثتك عن مناقب نفع العصا إلى الصبح لما استنفدتها " ⁽³⁾.

(1) صولة ، عبدالله (2001) . الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية ، د ط ، جامعة منوبة ، منشورات كلية الآداب ، منوبة .

(2) الدريدي ، سامية (2008) . الحجاج في الشعر العربي القديم – من الجاهلية إلى القرن الأول الهجري / بنيته وأساليبه ، ص 214 .

(3) البيان والتبيين ، ج3 ، ص31

وبالعودة إلى الحجج المؤسسة على بنية الواقع والتي هي بالأصل قائمة على التجارب والعلاقات بين الأشياء نجد من خلال هذه القصة كيف استخدم التغلبي مزايا العصا ليثبت ويبرهن على صحة دعواه القائمة على مزايا العصا فهو استخدم كل مراحل رحلته مع الشرقي حتى بأصغر الحوادث وأدقها فقد وظف هذه الحوادث توظيفاً اقناعياً حتى يصل إلى مراده وهدفه وهو إقناع الشرقي بمزايا العصا، بل وزاد على ذلك أنه اختتم كلامه بـ "والله لو حدثتك عن مناقب نفع العصا إلى الصبح لما استنفدتها " هذا إشارة من التغلبي إلى كثرة منافع العصا وكثرة الأدلة والحجج والبراهين التي تزيد وتدل على منافع العصا.

و جعل الجاحظ يفتح باباً آخر يدلل به على مزايا العصا عقده وسماء " ومن جمل القول في العصا وما يجوز فيها من المنافع والمرافق " ، واستفتحته بتفسير شعر غنية الأعرابية بشأن ابنها الذي ذكرته في أرجوزة فيها:

أحلف بالمروءة يوماً والصفاء *** أنك خير من تفاريق العصا (1)

وما يلخص قصة هذا الحجة - أيضاً - في قوله : " وذلك أنه كان ابن شديد العرامة كثير الثقلت إلى الناس، مع ضعف أسر ودقة عظم ، فواثب مرة فتى من الأعراب فقطع الفتى أنفه، فأخذت غنية دية أنفه فحسنت حالها بغد فقر مدقع، ثم واثب آخر فقطع أذنه فأخذت الدية، فزادت دية أذنه في المال وحسن الحال . ثم واثب بعد ذلك آخر فقطع شفته فأخذت دية شفته . فلما رأت عندها من الإبل والغنم والمتاع والكسب بجوارح ابنها حسن رأيها فيه وذكرته في أرجوزة لها " (2) .

2. الحجة السببية .

تتخذ هذه الحجة التتابع أساساً لها، فهي تهدف إلى الربط بين حدثين متتابعين بواسطة رابط سببي، حيث نبني الأحداث محيلين على رابط سببي يصل بينهما (3) .

واستطاع الجاحظ أن يستخدم هذا النوع من الحجج، لما يتناسب و يعتمد على الربط بين المقدمات والنتائج ، " وتعتمد قيمة أي عنصر على الغاية التي هو وسيلتها" (4) واعتبر العصا سبب كونها سمة ترتبط بعادات بعض الأقوام ومنهم العرب، وكذلك كان حال تذييل القميص وسحر الرداء للعراف، والعصابة والعمامة لسيد العشيرة، واستشهد الجاحظ على ذلك بأخبار كثيرة، " فقد قال عيلان بن خرشة للأحنف : يا أبا بحر، ما بقاء ما فيه العرب ؟ قال : إذا تقلدوا السيوف، وشدوا العمائم واستجادوا النعال ، ولم تأخذهم حمية الأوغاد . قال : وما حمية الأوغاد ؟ قال : أن يعدّوا التواهب ذلاً " (5) .

(1) البيان والتبيين ، ج 3 ، ص 31 .

(2) المصدر نفسه ، ج 3، ص 31 .

(3) الدريدي ، سامية (2008) . الحجاج في الشعر العربي القديم - من الجاهلية إلى القرن الأول الهجري / بنيته وأساليبه، ص 215 .

(4) الشباعن، علي (2010). الحجاج والحقيقة وآفاق التأويل ص 149

(5) البيان والتبيين ، ج 3، ص 64 .

فقد جعل الأحنف شد العمام من المميزات والخصائص التي تميز العرب عن غيرهم من الأقوام وكذلك " قال علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) قولاً أحسن من هذا، قال : تمام جمال المرأة في خفها ، وتمام جمال الرجل في كَمته "(1).

ومن خلال القول السابق نفهم وندرك، أن كمال جمال الرجل تكمن بالعمامة التي يرتديها.

ونرى الجاحظ ما زال يستعرض الأقوال، ويدعم بالشواهد القولية والشعرية ما يثبت صحة دعواه فيما يتعلق بالعمامة وفي ذلك يقول: " والعصابة والعمامة سواء . وإذا قالوا سيّد معمم فإنما يريدون أن كل جناية يجنيها الجاني من تلك العشيرة فهي معصوبة برأسه . وقال دريد بن الصّمة:

أبلغ نعيما وعوفا إن لقيتهما *** إن لم يكن كان في سميتهما صمم
فلا يزال شهاب يستضاء به *** يهدي المقانب ما لم تهلك الصمم
عاري الأشاجع معصوب بلمته *** أمر الزعامة في عرنيته شمم" (2) .

أي أن العمامة لابسها محاسب على سلوكياته وأفعاله، بل يتعدى الأمر بأن يتحمل أفعال عشيرته والتبعية على ذلك، فقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: " العمام تيجان العرب"(3) . وقال أبو الأسود الدؤلي بشأنها عند ذكرهم إياها له: " حنة في الحرب، ومكنة من الحر، ومدفأة من القر، ووقار من الندي، وواقية من الأحداث، وزيادة في المقامة، وهي بعد عادة من عادات العرب" (4)، فقد وضع القناع حيث " كان من عادة الفرسان العرب في المواسم والجموع، وفي أسواق العرب، كأيام عكاظ وذي المجاز وما أشبه ذلك، التقّع" (5)، فجعل العمامة شأنها شأن كل هذه التسميات التي عرف بها العرب، ولا غنى لهم عنها، وما مطاعن الشعوبية بشأنها إلا خير دليل على جهلها بعادات الشعوب والأقوام، فحجته في ردّه ذلك جهلهم بما تعارفت عليه الأمم من السيماء، مما كان متوارثاً بين أفرادها، إذ طعنهم في العمامة كان وبالا عليهم في رأي الجاحظ، لأنه كشف عيباً لديهم في ثقافتهم، مما يعود عليهم بالقدح والذم.

(1) البيان والتبيين ، ج 3 ، ص 64 .

(2) المصدر نفسه ، ج 3، ص 65 .

(3) المصدر نفسه ، ج 3، ص 65 .

(4) المصدر نفسه، ج 3، ص 65 .

(5) المصدر نفسه، ج 3، ص 66 .

" والقناع من سيما الرؤساء . والدليل على ذلك والشاهد الصادق ، والحجة القاطعة، أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان لا يرى إلا مقنعا. وجاء في الحديث : " حتى كأن الموضع الذي بعقيب رأسه من ثوبه ثوب دهان " (1) .

وزاد الجاحظ في ذكر العمامة والقناع وما لها عند العرب من شأن بفعل النبي الكريم لها من خلال الحديث الشريف السابق ذكره، و ما زال الجاحظ يزيد ويكثر من استجماع الأسباب التي تقوي من غايته ومقصوده من وراء هذه الأخبار .

واختتم الجاحظ ذكر العمامم بقوله : " ولذكر العمامم مواضع . قال زيد بن كثرة العنبري :

منعت من العهار أطهار أمه * وبعض الرجال المدعين زناء**

فجاءت به من عبل القوام كأنما * عمامته فوق الرجال لواء**

لأن العمامة ربما جعلوها لواء. ألا ترى أن الأحنف بن قيس، يوم مسعود بن عمرو، حين عقد لعبس بن طلق اللواء، إنما نزع عمامته من رأسه فعقد لها " (2) .

بل وزاد على ذلك بقوله : " وربما شدوا بالعمائم أوساطهم عند المجاهدة ، وإذا طالت العقبة : ولذلك قال شاعرهم :

فسيروا فقد جنّ الظلام عليكم * فباست امرئ يرجو القرى عند عاصم**

دفعنا إليه وهو كالذئخ خاظيا * نشدّ على أكبادنا بالعمائم (3) .**

وبذلك كانت العمامم وما شابهها تتخذ في الحضارة الإسلامية خاصة والعربية بشكل عام رافدا رمزيا للسيادة والجمال عند الرجل، و سيما عند العرب، إذ اعتبرت مظهرا ملازما للرؤساء والسادة، فلا يرى إلا مقنعا أو يرتدي عمامة، وعرض الجاحظ حجته في اعتراضه على ما زعمت الشعوبية بشأنها فوقى الحجاج بإحالة الأسباب، وكفى الدليل، وأقنع السامع.

3. حجة السلطة

تعد حجة السلطة من الحجج الفاعلة في خطاب الجاحظ وابن قتيبة، وهي حجة لها من الوجوه ما تعدد ومن الأنواع ما تباين، حتى غدت من أركان الخطاب، وهي إلى جانب كونها حجة مركزية تأتي لتدعم ما أدمج في الخطاب من حجج تستجمعها داخل مدارها وتستقطبها في نواة محيطها . " وتختلف السلطة في حجة السلطة وتعدد تعددا كبيرا فقد تكون " الإجماع " أو " الرأي العام " أو العلماء " أو " الفلاسفة " أو " الأنبياء " وقد تكون هذه السلطة غير شخصية مثل الفيزياء أو العقيدة أو الدين أو الكتاب المقدس وقد يعتمد في الحجاج بالسلطة إلى ذكر أشخاص معينين بأسمائهم على أن تكون سلطة هؤلاء جميعا معترفا بها من قبل جمهور السامعين في المجال الذي ذكرت فيه " (4).

(1) البيان والتبيين ، ج3، ص 67 .

(2) المصدر نفسه ، ج3، ص 69 .

(3) المصدر نفسه ، ج 3 ، ص 69 .

(4) الشبعان، علي (2010) . الحجاج والحقيقة وآفاق التأويل، ط 1، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ص

ومن صور حجاج السلطة عند الجاحظ ما دافع به عن العصا فقد أعطى قضية العصا أهمية كبيرة ، وظهر ذلك جليا من خلال عدد الصفحات التي تكلم بها عن العصا ، و يقول في ذلك: " وأما العصا فلو شئت أن أشغل مجلسي كله بخصالها لفعلت " (1).

حاول الجاحظ أن يقوي منعه واعتراضه بعدد من المبررات يدحض بها ما جاء به الشعوبية في التهوين من شأن العصا، ومن ذلك ردّها بداية إلى أصل كريم، وهو ما يبينه قوله: " والدليل على أن أخذ العصا مأخوذ من أصل كريم، ومعدن شريف، ومن المواضع التي لا يعيبها إلا جاهل، ولا يعترض عليها إلا معاند، اتخاذا سليمان بن داود عليه السلام العصا لخطبته وموعظته، ولمقاماته، وطول صلاته ، ولطول التلاوة والانتصاب، فجعلها لتلك الخصال جامعة . قال الله عز وجل: ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ

تَبَيَّنَتِ الْجُنُ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ أَلْمُهَيْنِ ﴾ (سبأ: 14). والمنسأة هي العصا (2).

وزاد أن ذكره لسليمان عليه السلام كان لغاية في نفسه مفادها قوله: " وإنما بدأنا بذكر سليمان عليه السلام لأنه من أبناء العجم ، والشعوبية إليهم أميل، وعلى فضائلهم أحرص، ولما أعطاهم الله أكثر وصفا وذكرنا " (3) ، ويظهر هنا من حجاج الجاحظ توظيفه واستشهاده للآيات القرآنية صورة من صور حجاج السلطة، إذ يتبع حديثه عن نسبة العصا إلى سيدنا سليمان في اتخاذه أياها ، فيورد لتأكيد قوله حجة قرآنية .

وانتقل بحجابه من النبي سليمان إلى نبي آخر هو موسى عليه السلام، وكأنها أي العصا صارت في رأيه رمزا للنبوّة ، ودليلا عليها في قوله : " وقد جمع الله لموسى بن عمران عليه السلام في عصاه البرهانات العظام، والعلامات الجسام ، ما عسى أن يفي ذلك بعلامات عدّة من المرسلين، وجماعة من النبيين . قال الله تبارك وتعالى فيما ذكره من عصاه ﴿ إِنَّ هَذَا نَ لَسَحِرَ نِ

يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكَ مِنْ أَرْضِكَ بِسِحْرِهِمَا ﴾ (طه : 63)، إلى قوله تعالى: ﴿ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى ﴾ (طه : 69) " (4) ، فجعل الجاحظ العصا من قصة سيدنا موسى محلا للمعجزة ، فقد استقامت على أساس منها، كما استقامت حجة عيسى على الطب ، وكما دارت حجة محمد على القرآن، وكان معروفا أن معجزات الرسل تكون من جنس ما برع فيه المرسل إليهم " (5) .

(1) البيان والتبيين، ج 3، ص 44 .

(2) المصدر نفسه، ج 3، ص 19 .

(3) المصدر نفسه، ج 3، ص 20 .

(4) المصدر نفسه ، ج 3، ص 20 .

(5) ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم (1973) . تأويل مشكل القرآن، شرحه ونشره السيد أحمد صقر، دار التراث، القاهرة، ط 11، ص 12.

وزاد الجاحظ في توظيفه لحجاج السلطة من الكتاب العزيز لدحض مطاعن الشعوبية بما يعرفون ، وواصل في سرد قصة موسى عليه السلام، مركزا على مقامات ذكر العصا، للإعلاء من شأنها، وهو من وراء ذلك يعلي من شأن العرب بها، فقال : " وقال الله عز وجل: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يُفْرِعُونَ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ حَقِيقٌ عَلَيَّ أَن لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَءِيلَ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِتَائِيَةٍ فَآتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾ " (1) (الأعراف 104:107) .

وأضاف : " وقال الله عز وجل: ﴿ قَالُوا يَكُمُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقَىٰ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَن أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (الأعراف 115-118) (2) .

ألا ترى أنهم سحروا أعين الناس واسترهبوهم بالعصي والحبال ، لم يجعل الله للحبال من الفضيلة في إعطاء البرهان ما جعل للعصا ، وقدرة الله على تصريف الحبال في الوجوه، كقدرته على تصريف العصا " (3)، فالعصا إذن في نظر الجاحظ من أكبر البراهين والأدلة التي تجلى سبحانه وتعالى في إظهارها وبيانها على يدي نبي الله موسى بن عمران .

4. الحجج التي تستدعي القيم :

إن هذه الحجج هي محاولة وصل دعوى المحاجج بقيمة أو خلق أو فضيلة (4) .

و يقوم على استدعاء القيم لفرض نمط من الاختيار ليجبر المتلقي على قبوله والإذعان له من خلال اعتماده على حجج ذات السلطة " فانتة " فيتحول الإقناع إلى هجوم يستهدف عوالم المتلقي الشعورية والفكرية والمعرفية (5) .

(1) البيان والتبيين، ج 3، ص 21 .

(2) المصدر نفسه، ج 3، ص 21 .

(3) المصدر نفسه، ج 3، ص 21 .

(4) الدهري ، أمينة (2011) . الحجج وبناء الخطاب في ضوء البلاغة الجديدة، ص 167 .

(5) الدريدي، سامية (2008) . الحجج في الشعر العربي القديم - من الجاهلية إلى القرن الأول الهجري / بنيته وأساليبه، ص 270 .

ولعل الحجج التي تكون معتمدة على القيم تلزم المتلقي بالأخذ بالآراء التي تعتمد تلك القيم، ولا يستطيع رفضها أو معارضتها. ومن خلال الرجوع إلى قضية الشعوبية، نجد أن هناك نوعاً من القيم ظهرت وبرزت وهي " القيم الكونية "، فقد برزت بشكل ملحوظ وظاهر، ولكي تؤدي دورها وتحقق الهدف المنشود، وهو جعل المتلقي يقبل بالرأي الذي يطرحه المحتج ويدّعي له، لا بد من مراعاة الدقة والحرص في اختيار القيم، حتى تتلاءم أهدافه الحجاجية والقيم التي يحتج بها في خطابه.

والحجاج الذي يعتمد القيم الكونية أي الذي يستدعي قيم " الخير " و " الحق " و " الجمال " يقوم فيه المحتج باستدعاء هذه القيم في خطابه ويجعلها مرجعاً أو خلفية يستند عليه في الحديث أو الدفاع عن رأي من الآراء أو موقف من المواقف⁽¹⁾.

وبالعودة إلى ظاهرة الشعوبية والرد عليها نلمس استعمال بعض هذه القيم والاحتجاج بها، وذلك أن الحجاج بهذا النوع من القيم يجعل المتلقي يقبل بها ولا يرفضها أو يعارضها؛ لأنه لا يستطيع رفض هذه القيم أو معارضتها، لأنه بمعارضتها يعارض مبادئه وقيمه التي هي قيم تعارف عليها ونشأ فيها فهي راسخة وثابتة لا تتغير، ومن هذه القيم التي نلمسها في حجج ابن قتيبة في رده على الشعوبية نجد قيمة " النصيح " ومثال ذلك قول ابن قتيبة:

" فبالله ما كان أحد من أصحابك ببالغ لك أكثر منها، ولا زائد لك عليها، ولا يحرملك منفعتها مخرجها مني، فإنه لا يُزري بالمنافع عند ذوي الرأي أن تكون من الأعداء، كما لا يحبب المضار إليهم أن تكون على أيدي الأولياء " ⁽²⁾.

فهذا الكلام عبارة عن نصح وإرشاد يدفع بالمتلقي للأخذ والقبول به؛ لأن قائل هذا الكلام يظهر لنا بأنه ذو خلق كريم وصاحب نظر ولو لا ذلك لما نصح، فالذي قال هذا الكلام كان يعتمد على قيمة الخير في نصحه وإرشاده، لهذا المتلقي ولمكانته ومعرفته بالعلم والمعرفة يفعل هذا الخير، فما على المتلقي إلا قبوله والإذعان له لأنه يقول الصواب ولا يحب إلا الخير والصالح.

"إن توظيف هذا النوع من الحجج يساعد المحتج في الضغط على المتلقي، وجعله يضطر إلى قبول ذلك الرأي أو الإذعان له حتى وإن كان يرفض ذلك لأنه لا يملك خياراً آخر، فهو يمسكه من مبادئه التي لا يمكنه أن يتناقض معها، فهذه القيم التي سبق ذكرها بمثابة ركائز يعتمد إليها المحتج للتأثير على المتلقي فيسلب منه الاقتناع بسهولة، لأنه يعرف مسبقاً أنه لن يرفض أي شيء يوافق تلك القيم وبخاصة قيم " الخير " و " الحق " فهو يقبلها دون أي اعتراض أو مناقشة" ⁽³⁾

(1) الدريدي، سامية (2008) . الحجاج في الشعر العربي القديم – من الجاهلية إلى القرن الأول الهجري / بنيته وأساليبه، ص 271 .

(2) ابن قتيبة، رسالة العرب، ص 401 .

(3) انظر: آمال، شيخ (2011). البنية الحجاجية في كتاب المقابسات لأبي حيان التوحيدي، رسالة مجستير، جامعة السيلة، ص 168.

إن المحتج متى دافع عن قضية ما أو رأيا يراه صوابا جعله حقا خالصا واحتج على أساسه وحشد له من صور الحقيقة ونفى عنه الاحتمالات أو الفرضيات، واستند في كل ذلك إلى قيمة " الحق " والتي تؤثر في المتلقي بشكل كبير، إذ إنها توجه الخطاب الحجاجي في الاتجاه الذي يراه المحتج ، وتجعل المتلقي يسير في ذلك الاتجاه وتحمله على قبول آرائه ومواقفه (1) .

ومن المؤكد أن سيطرة فكرة " الحق " وسلطانها في الخطاب لها بالغ الأثر في نفسية المتلقي وقناعته ، لأنها تركز على سلطة قوية ومرجعها في أغلب الأحيان مستقى من الدين أو من حقائق متعارف عليها لا يمكن للمتلقي أن يطعن في صحتها، وهو بذلك لا يستطيع رفضها أو الرد عليها وهذا يصل المحتج إلى مبتغاه ، ويذعن المتلقي له ولكلامه، ومن الأمثلة على هذه الحجج التي تعتمد قيمة " الحق " في الاحتجاج ما نجده في قول ابن قتيبة: ﴿ نَحْنُ قَسَمًا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرِيًّا ﴾ (الزخرف:32)(2).

فهذا القول يعتمد على حقيقة دينية وواقعية وهي أن الله باسط الرزق وكل شيء هو رازقه ومعطيه ، فهذا القول " حق " لا يمكن للمتلقي أن يرفضه أو يعترض عليه بقول آخر، كأن يقول إن الله ليس الرازق، فهو بذلك يتناقض مع دينه وقناعته، ولهذا فهو يقبل هذا القول ويذعن لصاحبه دون أن يناقشه أو يرفض هذا القول لأن صاحب الحديث يفرض نمطا معيناً، ويحتج على كلامه منذ البدء ليصل إلى إقناع المتلقي ، ولهذا نجده يلجأ إلى هذا النوع من الحجج لفاعليتها في الخطاب، وما توفره للمحتج من قوة حجاجية ، فهي تسهل على المحتج بناء خطابه دون التفكير في المتلقي وما يسرد عليه ، لأنه ينطلق من قناعة هي عند المتلقي فيحتج لرأيه وهو مرتاح منه ومن اعتراضه له.

الخلاصة:

نخلص من هذا المبحث بذكر أهم وأشهر أنواع الحجج المستخدمة في النثر العربي القديم بما يتعلق بقضية الشعوبية، كما ظهرت في نصي الجاحظ وابن قتيبة بهدف تفنييد مطاعن ومزاعم الشعوبية ضد العرب وتمثلت أنواع الحجاج في القضية بالحجج المؤسسة على الواقع، والحجج السببية، وحجج السلطة، والحجج التي تستدعي القيم، وقد حاولت التمثيل على هذه الحجج من خلال النصين المذكورين.

(1) ابن قتيبة، رسالة العرب ، ص 274 .

(2) المصدر نفسه، ص 362 .

الفصل الثاني

الحجاج (دراسة أسلوبية)

- البنية الصوتية للنصوص الحجاجية .
- معجم الحجاج .
- التراكيب الحجاجية .
- الروابط الحجاجية .
- أنماط بلاغية وأسلوبية أساسية .

المبحث الأول

البنية الصوتية للنصوص الحجاجية

لصوت دلالة لغوية، ودلالة اصطلاحية.

فالصوت لغة : " من صات يصوت صوتا، فهو صائت، ومعناه: صائح، قال ابن السكيت:

الصوت صوت الإنسان وغيره، والصائت : الصائح، ورجل صيَّت أي شديد الصوت" (1).

وأما ابن سينا فيقول عن الصوت: " أظن أن الصوت سببه القريب تموج الهواء دفعة بسرعة وبقوة من أي سبب كان " (2)، ويعرّف إبراهيم أنيس الصوت بقوله: " الصوت ظاهرة طبيعية ندرك أثرها قبل أن ندرك كنهها، فكل صوت مسموع يستلزم وجود جسم يهتز، على أن تلك الهزات قد لا تدرك بالعين في بعض الحالات " (3)،

والإيقاع ظاهرة قديمة عرفها الانسان في حركة الكون المنتظمة، أو المتعاقبة المتكررة أو المتألّفة المنسجمة ، كما عرفها في حركة الكائنات من حوله، قبل أن يعرفها في تكوينه العضوي فأدرك أنها الأساس الذي يقوم عليه البناء الكوني، ليضمن حركة الظواهر المادية بما يوفره لها من توازن وتناسب ونظام (4).

ويمكن إيجاد تعريف للإيقاع وذلك بالعودة إلى جذر الكلمة وبنيتها، وبالرجوع إلى لسان العرب نجد أن: " الإيقاع من إيقاع اللحن والغناء، وهو أن يوقع الألحان ويبينها ، وسمى الخليل - رحمه الله - كتابا في ذلك المعنى، كتاب الإيقاع " (5).

ويربط ابن منظور في معجمه الإيقاع بالغناء والألحان، لما للغناء واللحن من علاقة وثيقة بالشعر، فالشعر إذا يشاطر الموسيقى في استعمال هذا المصطلح.

وهناك تعريف للإيقاع لا يرتبط بالشعر والموسيقى فقط، بل يرتبط بسائر الفنون لا اشتراكها في صفة المتعة الجمالية، يقول " سوريو " : " الإيقاع تنظيم متوال لعناصر متغيرة كفيّاً في خط واحد بصرف النظر عن اختلافها الصوتي " (6).

(1) لسان العرب ، ج 7 ، ص 302 ، مادة : صوت .

(2) ابن سينا ، رسالة أسباب حدوث الحرف ، تحقيق محمد حسان الطيان ويحيى مير علم ، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ، ص 56 .

(3) أنيس ، إبراهيم (د ت) . الأصوات اللغوية ، د . ط ، مكتبة نهضة مصر ، القاهرة ، ص 5 .

(4) إسماعيل ، عز الدين (1955) . الأسس الجمالية في النقد العربي ، د . ط ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ص 115 .

(5) لسان العرب ، ج 15 ، ص 263 ، مادة : وقع .

(6) إسماعيل ، عز الدين (1955) . الأسس الجمالية في النقد العربي ، ص 36 .

وعدّ " محمود السعدي " الإيقاع: " صيغة معينة من النظم يصوغها صانع الإيقاع بعملية أساسها هيكله وهندسة تتألف وفقها عناصره الماديّة في هيئة متماسكة تتعلق أجزاؤها بعضها ببعض، وبعضها بالكل " (1).

وقد عرف صاحب المعجم المفصل في اللغة والأدب الإيقاع الأدبي بأنه "حركة النغم الصادر عن تأليف الكلام المنثور والمنظوم والناثج عن تجاوز أصوات الحروف في اللفظة الواحدة، وعن نسق تزواج الكلمات فيما بينها" (2).

أما تعريف الإيقاع في كتب العروض العربية الحديثة ، فيفيد بأنه " : مجموعة أصوات تنشأ من المقاطع الصوتية للكلمات ، بما فيها من حروف متحركة وساكنة " (3) .

و تعد البنية الصوتية أساساً من أسس تأليف النص وبنائه وبدونه يتعذر سير العمل الإبداعي سواء أكان نثراً أم شعراً.

الإيقاع في النثر.

يعطي الإيقاع رونقا خاصاً، ويزيد من جماله وذلك باتفاقنا بأن اللغة العربية بأصلها لغة إيقاعية، اهتمت بجرس اللفظ وأثر الصوت فستفك بأصول هذا الاهتمام ، فمرده عائد أن العربية أمة شفهية غير كاتبة ولا قارئة، اعتمدت على السماع والرواية في مناقلة العلم لزمن معين.

وقد استخدم العرب الإيقاع في نثرهم من خلال استخدام الأساليب والمحسنات البديعية كالسجع والطباق والجناس والتوازن والمقابلة .. ، سواء بقصد أم بغير قصد . والقارئ في هذا المجال يجد أن العلماء قد تباينوا في موقفهم من الصنعة البديعية ، فمنهم من أكثر وأسرف في استعمالها ومنهم من قلل من استعمالها بل لم يستعملها بالأصل إلا ما جاء بالسليقة و بغير قصد منه .

(1) المسعدي ، محمود (1996) . الإيقاع في السجع العربي ، د . ط ، نشر عبد الكريم بن عبدالله ، تونس ، ص 5-6 .

(2) عاصي، ميشال ، إميل يعقوب (1978) . المعجم المفصل في اللغة والأدب ، ط1 ، دار الملايين ، بيروت ، ج1، مادة إيقاع.

(3) جمال الدين، مصطفى ، (1974) . الإيقاع في الشعر العربي من البيت إلى التفعيلة ، ط2 ، مطبعة النعمان ،

الإيقاع الداخلي

إن الإيقاع متقدم على الموسيقى والشعر زمنياً، وإذا كان القدماء لم يحددوا مفهوم الإيقاع بوضوح، ووجدوا صعوبة في تحديده، و يخبرنا إسحاق الموصلي حين قال عن صعوبة تحديد المصطلح : " إنه ما لا تؤديه الصفة، ولكنه يتحصل بالمعرفة " (1)، فإن المحدثين كذلك وقفوا حيارى في تحديد مفهوم الإيقاع ووصفه بدقة . والناظر في تعريف الإيقاع كما بينته الدراسات العربية القديمة، يلحظ بوضوح أنه كان يشير إلى مصطلحات عدة، مثل العروض والوزن والقافية والموسيقى؛ أي أن الإيقاع قديماً كان يرتبط أساساً بالإيقاع الخارجي بخاصة المتمثل بالوزن والقافية، دون الاهتمام بالإيقاع الداخلي، الذي تنتجه مكونات نصية عدة، تسهم البلاغة والاتساعات اللغوية بقدر وافر منها.

فالإيقاع إذاً، هو كل ما وقع من عناصر النص وتكيفها فيما بينها (2)، ذلك أن الإيقاع ملتحم بالخطاب لا مجال لفصله عنه، فهو خطة استراتيجية تتبع في النص (3).

واجتهدت في هذا المبحث بدراسة الإيقاع الداخلي في قضية الشعبية عند الجاحظ وابن قتيبة .

فما أبرز الإيقاعات عند الجاحظ وابن قتيبة في قضية الشعبية ؟

وكيف ولدا إيقاعات نصوصهما النثرية ؟

ينشأ من إيقاع الأصوات بالحروف والكلمات ما يسمى بالجرس، وتختلف الأجراس عن بعضها البعض، فالحروف في صوتها تختلف في صفاتها حسب المخارج وصفات الصوت، وجرس الكلمات تختلف في صوتها وإيقاعها نتيجة ائتلاف هذه الحروف وتوافق أصولها.

يقول الجاحظ : " وليس هم كمن حفظ علم غيره، واحتذى على كلام من كان قبله ، فلم يحفظوا إلا ما علق بقلوبهم ، والتحم بصدورهم ، واثصل بعقولهم .. " (4) .

(1) الصكر، حاتم (1993) . بحث في الإيقاع والإيقاع الداخلي في قصيدة النثر خاصة ، مجلة الأقاليم ، العدد 5 ، ص 58 .

(2) الجيّار، مدحت (1995) . موسيقى الشعر العربي - قضايا ومشكلات ، ط 3 ، دار المعارف ، القاهرة ، ص 207 .

(3) العجمي :محمد الناصر (1998) . النقد العربي الحديث ومدارس النقد الغربية ، ط 1 ، دار محمد علي الحامي - صفاقس كلية . الآداب والعلوم الإنسانية - سوسة ، تونس :، ص 697

(4) البيان والتبيين ، ج 3 ، ص 18 .

هذه الفقرة تشتمل على عناصر مختلفة، والتي ينتج عنها إيقاع صوتي متسق ، وموسيقى رائعة، منها: حرف الهاء في قوله: (حفظ علم غيره، من كان قبله) .وصوت الهاء من الحروف المهموسة وقابل للمد والتطويل، " والهاء صوت رخو مهموس، عند النطق به يظل المزممار منبسطة ، دون أن يتحرك الوتران الصوتيان، ولكن اندفاع الهواء يحدث نوعا من الحفيف، يسمع في أقصى الحلق أو داخل المزممار " (1)، فيعطي ذلك جرسا موسيقيا مميزا .

ونجد كذلك حرف الهاء قد تكرر عند ابن قتيبة بقوله: " وسأقول في الشرف بأعدل القول ، وأبين أسبابه، ولا أبخس أحدا حقه، ولا أتجاوز به حده ، فلا يمنعني نسبي في العجم أن أدفعها عما تدعيه لها جهلتها، وأثني أعنتها عما تقدّم إليها سفلتها .. " (2) .

اجتهد ابن قتيبة في إيصال فكرته والاحتجاج لقوله، وفيما يرمي إليه من تبين أسباب الشرف، فيتكلم عن نسب العجم (الذي هو منهم)، ويدافع عن التهم والادعاءات التي وجهت للعرب، بصورة موسيقية مؤثرة، لها وقع في النفس والقلب .

الإيقاع الناتج من الجنس .

جاء في لسان العرب الجنس مصدر جانس وكذلك المجانسة والتجنيس مصدر جنس والتجانس مصدر تجانس والجناس في اللغة الضرب وهو أعم من النوع، ويقال هذا يجانس هذا أي يشاكله (3) .

وفي الاصطلاح هو أن يتفق أو يتشابه اللفظان في النطق ويختلفا في المعنى (4)، و ذهب بعضهم بأن الجنس هو : " مقطعان صوتيان متفقان في الإيقاع مختلفان في المدلول " (5).

و يعدّ الجنس من أكثر أشكال البديع موسيقياً، وهو ينبع من ترديد الأصوات المتماثلة التي تقوي رنين اللفظ، وهو مظهر من مظاهر موسيقى الكلام.

و يحتوي النثر من الإيقاع والموسيقى ما يساوي الشعر حيناً من جراء التجانس والتوافق الذي يقوم على طبيعة الحروف وترتيبها في الكلمة .

ولروعة الألفاظ جمال خاص إذ تقدم المتعة الطربية التي يجدها المتلقي مستمعاً أو قارئاً، فتنشأ من تتابع أجراس حروفها ومن توالي الأصوات التي تتألف منها في النطق، وفي الوقوع على الأسماع، كما أن التلاؤم يكون في الكلمة بابتلاف الحروف والأصوات وحلاوة الجرس ويكون في الكلام بتناسق النظم وتناسب الفقرات وحسن الإيقاع.

(1) أنيس، ابراهيم (د.ت)، الأصوات اللغوية، ص (76)

(2) ابن قتيبة ، رسالة العرب ، ، ص 376 .

(3) لسان العرب ، مادة (ج ن س) ، ج 3 ، ص 215 .

(4) الجارم ، علي و مصطفى أمين (2010) . البلاغة الواضحة ، ط 1 ، مكتبة البشري ، كراتشي - باكستان ، ص 245 .

(5) السلطان ، منير (1986) . البديع تأصيل وتجديد ، د ط ، منشأة المعارف ، الاسكندرية ، ص 76 .

وللجناس باعتباره محسناً بديعاً لفظياً أثره في إثراء الجانب الإيقاعي للنثر الفني، و الناظر في نثر الجاحظ وابن قتيبة لا يكاد يعثر إلا على القليل من الجناس، وقد اعتمد الجاحظ وابن قتيبة على الجناس الناقص أكثر من الجناس التام، حتى لا نكاد نرى صوراً من الجناس التام إلا ندرة على الأقل من خلال المدونة التي بين يدينا .

يقول الجاحظ: " وأما ذكرهم للركب، فقد أجمعوا على أن الركب كانت قديمة، إلا أن ركب الحديد لم تكن في العرب إلا في أيام الأزارقة، وكانت العرب لا تعود أنفسها إذا أرادت الركوب أن تضع أرجلها في الركب ، وإنما كانت تنزوا نزوا " (1).

من الملاحظ وجود الجناس الناقص (غير التام) في كلام الجاحظ، في معرض حديثه عن فروسية العرب بقوله: (وإنما كانت تنزوا نزوا) فيها من الجرس الصوتي، والتناغم بين مخارج الحروف. وأراد الجاحظ بقوله السابق أن فرسان العرب كانوا يستخدمون ركوب الخيل بمهارة عالية بحيث لا يحتاجون أي أمور مساعدة من وضع القدمين على الركب، ووجود جياذ حتى تقاد الخيل فيه، وفي هذا إشارة ودليل على مهارتهم الفائقة في ركوب الخيل، وأيضاً رداً على مزاعم الشعوبية التي شككت في فروسية العرب .

ومن ذلك أيضاً قول ابن قتيبة في دفاعه عن قضية الشرف وما ادعته الشعوبية من تفاضلها في الشرف قال ابن قتيبة: " و سأقول في الشرف بأعدل القول، وأبين أسبابه، ولا أبخس أحداً حقه، ولا أتجاوز به حده ، فلا يمنعني نسبي في العجم أن أدفعها عما تدعيه لها جهلتها، وأثني أعتنتها عما تقدم إليها سفلتها .. " (2) .

فقد جانس ابن قتيبة بين اللفظين (حقه، حده) في الفقرة السابقة، فقد توشحت هذه الفقرة بالجناس، وقد بدت المجانسة محكمة الأداء، متوازية الإيقاع يتضاعف وقعها من توحيد صيغ العبارة التي تصحبها، فكأن كل جملة في صيغتها المجزوءة المختصرة شطر بيت متشابه الوزن والروي، وحين تعاد قراءتها يتبين التوازن في عباراتها والتوسع في استخدام الجناس إلى غير ذلك من أنواع التتميق اللفظي والتلوين الصوتي بين عبارات الفقرات، مما جعل تلك الفقرة محكمة إحصائياً دقيقاً.

وكذلك في معرض حديثه عن الخيل وفضله وتقديم الأدلة والشواهد والبراهين على صحة دعواه، مستشهداً بحديث النبي - صلى الله عليه وسلم - وفي ذلك يقول : " وحدثني محمد بن عبيد قال : حدثني سفيان بن عيينة عن شبيب ابن غردقة عن عروة البارقي قال : سمعت النبي - صلى الله عليه وسلم - يقول : الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة... " (3) .

فقد جانس بين الخيل والخير في الحديث النبوي ، فتشعر عند قراءتها بسهولة ووضوح العبارة ، وكذلك توازن العبارات ، فجرس الألفاظ يدق ويرن من خلالها، وهناك موسيقى هادئة تتضج من أصوات تلك المفردات وتوازن جل العبارات، ويحدث في المقطوعة أصداء موسيقية جليلة.

(1) البيان والتبيين ، ج 3 ، ص 15 .

(2) ابن قتيبة ، رسالة العرب ، ص 376 .

(3) المصدر نفسه ، ص 368.

ويمكن الإشارة من خلال العودة إلى موضوع دراستنا " الحجاج في قضية الشعوبية "، أن الجاحظ وابن قتيبة قد قللا من استخدام الصنعة البديعية في معرض ردهما لمزاعم الشعوبية ضد العرب، لا نجد لهما اهتماما بارزا في اظهار الصنعة البديعية في معرض ردهما.

الإيقاع الناتج من السجع .

هو الكلام المقفى، أو موالاة الكلام على روي واحد، وجمعه أسجاع وأساجيع وهو مأخوذ من قولهم : سجعت الحمامة، وسجع الحمام هو هديله وترجييعه لصوته⁽¹⁾.
و سَجَّعَ سَجْعًا، وسَجَّعَ تَسْجِيعًا : " تكلم بكلام له فواصل، كفواصل الشعر من غير وزن، قال ابن جني: سمي سجعاً لاشتباه أواخره وتناسب فواصله، وسَجَّعَ الحمامُ: هذل على جهة واحدة. وسَجَّعَ الحمامة: موالاة صوتها على طريق واحد. وربط الخليل السجع بالفواصل فقال: سجع الرجل إذا نطق بكلام له فواصل كقوافي الشعر من غير وزن"⁽²⁾.
وهو توافق الفاصلتين في الحرف الأخير وأفضله ما تساوت فقره⁽³⁾، ويكون في النثر فقط، و يعد السجع من العناصر المهمة والبناءة للإيقاع في النص الحجاجي .
والسجع في البلاغة العربية من أهم ظواهر الأسلوبية النثرية، وهو يعطي للكلام مكانة أقرب إلى الرجز والقصيد، وإن كان دونهما، " وقد رفض البلاغيون العرب اطراد السجع والجناس وغيرهما من المحسنات اللفظية لما ينم عنه ذلك من تكلف يعوق الوظيفة البلاغية للخطاب ، فظهور التكلف منافٍ لغرض الإقناع الذي تستهدفه الخطابة "⁽⁴⁾.
والسجع من الأشكال اللغوية التي تنتمي إلى المستوى البديعي، ودورها لا يقف عند الوظيفة الشكلية، بل لها دور حجاجي لا سبيل زخرفة الخطاب، ولكن بهدف الإقناع البلوغ بالأثر مبلغه الأبعد، وفي البلاغة العربية من الصور والإمكانات والشواهد ما يثبت أن الحجاج من وظائفها الرئيسية⁽⁵⁾ .
فوجود الأسجاع في الكلام يشكل إيقاعا صوتيا من شأنه أن يوقع تأثيرا في نفس السامع، ويوجه ذهنه إلى الإذعان لرأي من الآراء فيقتنع به، إذ للجانب الصوتي على فعل التأثير، وصنع الحجة في سبيل نقل فكرة الخطبة من متكلم إلى متلق في سياق مناسبها وموضوعها.

(1) لسان العرب ، ج 3 ، ص 54، مادة (س ج ع) .

(2) مطلوب، أحمد (1986). معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، ص144.

(3) الجارم ، علي و مصطفى أمين (2010) . البلاغة الواضحة ، ط 1 ، مكتبة البشرى ، كراتشي - باكستان ، ص 252 .

(4) العمري ، محمد (2002) . في بلاغة الخطاب الإقناعي - مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية في القرن الأول نموذجا ، ط 1 ، أفريقيا الشرق ، الدار البيضاء ، ص 112 .

(5) المرجع نفسه ، ص 112 .

يقول الجاحظ : " وكانوا أميين لا يكتبون، ومطبوعين لا يتكلمون، وكان الكلام الجيد عندهم أظهر وأكثر، وهم عليه أقدر، وله أقهر، وكل واحد في نفسه أنطق، ومكانه من البيان أرفع، وخطبائهم للكلام أوجد، والكلام عليهم أسهل، وهو عليهم أيسر .. " (1) .

إن أسلوب التفضيل (أفعل) في الكلمات المذكورة في المقطع السابق (أظهر، أكثر، أقدر، أقهر).

يتحسسها المتذوق الفني بشكل مثير ومميز، إنها نمط من الإيقاع الخارجي والإيقاع الداخلي، فأسلوب التفضيل الذي يدل على القوة والغلبة يتناسب مع السياق الذي يستعرض أفضلية العرب عن غيرهم بالبلاغة، فاستخدم الجاحظ أفعال التفضيل ليظهر أفضلية العرب وغلبتهم بأسلوب فني رقيق.

لاشك أن ترديد الأصوات يزيد من حلاوة جرسها، خاصة إذا كان هناك ثمة عرض معنوي ويكتمل من خلاله الإيقاع المطرب لها ، ويتحقق الانسجام بين الألفاظ المتشابهة.

ووجود الأسجاع ولو بصفة أقل، يصبغ هذه الفقرة بصيغة تأثيرية، إذ للجانب الصوتي دوره في إحداث نوع من الإقناع في نفس السامع، واستعمال نغمات الصوت في الخطاب عند التواصل عن بعد من أجل اقناع المرسل إليه يمكن تصنيفها في علامات الخطاب عندما تصاحب التلفظ به، إلى العلامات اللغوية ؛ فيتواكب ما هو خطابي مع ما هو حجاجي (2).

فمن صور سجعه نذكر ما يلي : " هذا - أبفك الله - الجزء الثالث، من القول في البيان والتبيين ، وما شابه ذلك من غرر الأحاديث، وشاكله من عيون الخطب، ومن الفقر المستحسنة، والتنف المستخرجة، والمقطعات المتخيرة، وبعض ما يجوز في ذلك من أشعار المذاكرة، والجوابات المنتخبة " (3) .

وقع السجع عند الجاحظ في الألفاظ الآتية: (المستحسنة، المستخرجة، المتخيرة، المذاكرة، المنتخبة) . والملاحظ للكلمات السابقة يجد لها الوقع والأثر الطيب في نفس القارئ، وكذلك تلهمه الموسيقى والإيقاع التي تجذبه وتزيد من انتباهه، وتجعل للتعبير قوة وتأثيرا يساعد على ترسيخ الفكرة المطروحة، وتجعل المعنى سلسا وليئا، بمعنى أنه لا تجعله متكلفا أو متصنعا في إيراد الكلمات، ومن خلال التمعن والتدبر للجمل في الفقرة السابقة بقوله: (الفقر المستحسنة، والتنف المستخرجة، والمقطعات المتخيرة ، ... ، والجوابات المنتخبة) . نجد تساوي الفقرات في الطول يشكل جمالية ورونقا في القراءة وكذلك في السماع إذا كانت محكية أو مشافهة .

ويكون للسجع أهداف أخرى منها الهدف الإقناعي، حيث الناتج الموسيقي الذي يصنعه توالي الأسجاع في الخطبة يأخذ بلبّ السامع، ويطرب سمعه، ويسهل بذلك إقناعه، إذ " يمكن اعتبار الموسيقى رافداً من روافد الحجاج من جهة استلاء ما وقع على النفوس وامتلاك الأنغام للأسماع وما كان أملاك للسمع كان أفعل بالقلب وبالنفوس " (4) .

(1) البيان والتبيين ، ج 3 ، ص 18 .

(2) الشهري ، عبد الهادي بن ظافر (2004) . استراتيجيات الخطاب - مقارنة لغوية تداولية ، دار الكتاب الجديد المتحدة ، بيروت ، ص 456 .

(3) البيان والتبيين ، ج 3 ، ص 3

(4) الدريدي ، سامية (2008) . الحجاج في الشعر العربي القديم - من الجاهلية إلى القرن الأول الهجري / بنيته وأساليبه ، ص 127 .

الإيقاع الناتج من التكرار.

ظاهرة لغوية بارزة أصلها مأخوذ من الكرّ وهو الرجوع، وتأتي بمعنى الإعادة والعطف ، فكرر الشيء أي أعاده مرّة أخرى، الكرّ : الرجوع، ويقال: كرّرت الشيء تكريراً وتكراراً⁽¹⁾. ويعرف ابن الأثير التكرار بقوله: " هو دلالة اللفظ على المعنى مردداً، كقولك لمن تستدعيه (أسرع، أسرع) ، فإن المعنى مردّد، واللفظ واحد " ⁽²⁾. أي إعادة ذات اللفظ للدلالة على نفس المعنى.

ويذهب السجلماسي بأن مفهوم التكرار هو : " اسم لمحمول يشابه شيء شيئاً في جوهره المشترك لهما " ⁽³⁾ .

وظاهرة التكرار تثري الإيقاع الداخلي بواسطة ترديد حرف معين، أو مزاجية حرفين أو أكثر وتكرار ذلك يعكس الحالة الشعورية للمبدع وقدرته على تطويع الحرف ليؤدي وظيفة التنعيم لإضافة معنى إلى المعنى .

إن تكرار الكلمات، يحقق إيقاعاً يتفاعل مع المعنى ويجسمه ويعبره، ونجد هذه الظاهرة الإيقاعية في ردود الجاحظ وابن قنيبة في معرض ردهما على مطاعن الشعوبية، وجاء تكرار الحروف متناسبا مع سياق المعنى، متناسقا مع المقام.

وفي الخطاب البلاغي لابد من محفز ودافع يجعل المتكلم محتاجاً لتكرار لفظة بذاتها أو إعادة تعبير معين، ولولا ذلك لكان هذا الجهد بلا فائدة مرجوة، فدافع التكرار " إما أن يعود على الإيقاع، وإما أن يعود على موضوعه. ولا يتصور أن يخلو أحدهما عن اقترانه بصاحبه " ⁽⁴⁾، والتكرار ليس مجرد تردد كلمات وألفاظ متشابهة من أجل إحداث نغم موسيقي، وإنما هو تكرار مقصود مقترن بغاية وهدف الخطاب، ويدل عن اختيارات خاصة، ومفردات مقصودة من طرف المتكلم، وما يجدر الإشارة إليه أن التكرار بصوره المختلفة هو ثمرة من ثمرات الاختيار والتأليف⁽⁵⁾ و يكون التكرار من الصور الحجاجية لأنه يعتمد في بنائه على الاختيار والتأليف، الذين يعتبران من أهم العناصر التي يبني عليها الحجاج، والسبب في ذلك أن تكرار الصورة له تأثيره على المعنى ورسوخه في ذهن المتلقي، فالتكرار له دور مهم في حضور المعنى في ذهن

(1) لسان العرب ، مادة (ك ر ر)

(2) ابن الأثير ، ضياء الدين (1998) . المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، ت : كامل محمد محمد عويضة ، ط 1 ، دار الكتب العلمية ، ج 2 ، ص 345 .

(3) السجلماسي ، ابو محمد القاسم (1980) . المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع ، ت : علال الغازي ، ط 1 ، مكتبة المعارف ، المغرب ، ص 476 .

(4) السيد ، عز الدين علي (1986) . التكرير بين المثير والتأثير ، ط 2 ، عالم الكتب ، لبنان ، ص 107 .

(5) قاسم ، عدنان حسن (2001) . الاتجاه الأسلوبي البنيوي في نقد الشعر العربي ، د ط ، الدار العربية للنشر

المتلقي؛ لأن تكرار الشيء مرة ومرتين يؤدي إلى حضوره في ذهن وحضوره في ذهن يؤدي إلى ثبوته وثبوته يعني الاقتناع والقبول به ومن ثم الإذعان له، وقد كثر وروده في معرض الرد على الشعوبية بشكل لافت للانتباه على أنه اتخذ صور مختلفة، فمن تكرار للحروف إلى تكرار الكلمات والألفاظ إلى تكرار جمل بكاملها، وهذا إن دل على شيء يدل على - الجاحظ وابن قتيبة - كانا على علم بقدرة التكرار على الإقناع، ولهذا وظفاه في بناء حججهم وذلك بسبب أن " التكرار يساعد أولا على التبليغ والإفهام ويعين المتكلم ثانيا على ترسيخ الرأي والفكرة في الأذهان، فإذا ردد المحتج لفكرة حجة ما أدركت مراميها، وبانت مقاصدها ورسخت في ذهن المتلقي، وإن ردد رابطا حاجيا أقام تناغما بينها بين أجزاء الخطاب، وأكد الوحدة بين الأقسام أو أوهم المتلقي لها " (1) فالمتلقي إذا تكررت عليه الألفاظ أو الحروف ترسخت في ذهنه، وبذلك يسهل على المحتج أن ينفذ لطرح فكرته دون أن يترك المجال للمتلقي كي يفكر؛ لأن القضية قد رسخت في ذهنه واقتنع بها، فهو لن يرفضها ولن يعارضها، وهكذا فالتكرار لا يأتي في الكلام إلا تأكيدا له وتنبيها له وللدلالة على أن الأمر المكرر مهم ولولا ذلك لما كرّر (2) .

وإذا عدنا إلى قضية الشعوبية وجدنا الجاحظ وابن قتيبة في توظيفهما للتكرار كان توظيفا يتم عن طريق التكثيف، ومن الأمثلة التي تؤكد ما قلناه ما نجده في قول الجاحظ : " وكنتم لا تقاتلون بالليل، ولا تعرفون البيات ولا الكمين ولا الميمنة ولا الميسرة، ولا القلب ولا الجناح، ولا الساقة ولا الطليعة، ولا النفاضة ولا الدراجة، ولا تعرفون من آلة الحرب الرتيلة ولا العرادة ، ولا المجانيق " (3) .

نجد الجاحظ كثيرا ما يكرر (لا) النافية ويوظفها في عدة مواضع منها . فتكرار (لا) هنا هو تأكيد للنفي وتنشيط له وتوجيه الخطاب من جهة الإعراض عنه، فالجاحظ هنا لا يريد النفي ، إنما يريد جلب المتلقي ومحاولة وضعه موضع المنكر؛ وبالتالي يجد نفسه مجبرا على قبول الإجابة والإذعان لها، ولهذا نجد أن الجاحظ أولى جانب التكرار اهتماما كبيرا لأهميته البالغة ودوره الفعال في الإقناع والعملية الحجاجية، وقد جاءت حججه مملوءة بتكرارات سواء في الحروف أو الألفاظ أو المعاني أو حتى بعض الجمل، ولم يعبها ذلك بل العكس زادها قوة ورسوخا في ذهن المتلقي .

(1) الدريدي، سامية (2008) . الحجاج في الشعر العربي القديم - من الجاهلية إلى القرن الأول الهجري / بنيته وأساليبه، ص 168 .

(2) ابن الأثير، ضياء الدين (1998) . المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، ص 138 .

(3) البيان والتبيين ، ج 3 ، ص 11 .

المبحث الثاني

معجم الحجاج

تسهم الألفاظ في جلب القارئ ولفت انتباهه، لذلك على المخاطب أن يختار الألفاظ أو الكلمات اللائقة والمجسدة لحالته اختياراً دقيقاً كي يؤثر في المتلقي، إذ إن " للكلمة خصائص في ذاتها تستمدّها من اللغة ومن التداول تجعلها مؤهلة بطبيعتها لتكون ذات صبغة حجاجية، وترشحها لأن تكون من معجم الخطاب الحجاجي وقوام جداوله اللغوية، وإن لها في الخطاب بناءً على تلك الخصائص ، حركة تقصي فيها غيرها وتعوضه وتحل محله ليكون الخطاب أوغل في الحجاج وأذهب في الإقناع " (1) .

واختيار الألفاظ ليست المسألة الوحيدة الرامية إلى التأثير في المتلقي، بل هناك طريقة تركيب الألفاظ ، وموضوع الخطاب الذي استخدمت من أجله هذه الألفاظ، إذ إنه على المخاطب أن يختار الألفاظ الملائمة لموضوع خطابه لأنه لا يتم اختيار المفردات أثناء الحديث بصفة اعتباطية بل هناك اعتبارات خاصة بموضوع الحديث ذاته، الذي يفرض على المتكلم اختيار الكلمات المناسبة، فاستعمال الكلمات في غير محلها تجعل القارئ يقع في غموض، هذا الغموض الذي يدفعه إلى النفور والتخلي عن هذا الخطاب.

وبوجد هناك حقل معجمي مخصوص يساعد المحاج على تدعيم الرأي الذي يدافع عنه من ذلك نجد اعتماد ألفاظ مثل : العقل والتعقل والفهم والإدراك والعلم والمعرفة والحكمة والاستدلال والقياس ... إضافة إلى الأفعال الدالة على المنهج العلمي في البحث مثل : جرّبت / وجدت / عاينت / رأيت / علمت ...

ومن الألفاظ التي كثر استعمالها في الرد على مطاعن قضية الشعوبية كلمة (الدليل)، التي تكرر ذكرها عند الجاحظ وابن قتيبة بشكل ملحوظ بعدد سبعة عشر مرة :

- " ومما يدلّك على استحسانهم شأن المخرصة " (2).
- " ولأن ذلك يدل على شدّة أسر الفارس وقوة أيده " (3) .
- " قالوا : والدليل على أنكم لم تكونوا تقاتلون " (4) .
- " قلنا : ليس فيما ذكرتم من هذه الأشعار دليل على أن العرب لا تقاتل بالليل " (5) .

(1) صولة ، عبدالله (2001) . الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية ، ص 75 .

(2) البيان التبيين ، ج 3 ، ص 7 .

(3) المصدر نفسه ، ج 3 ، ص 11 .

(4) المصدر نفسه ، ج 3 ، ص 12 .

(5) المصدر نفسه ، ج 3 ، ص 12 .

- " والدليل على أنهم كانوا يقاتلون بالليل " (1) .
 - " والدليل على أن أخذ العصا مأخوذ من أصل كريم " (2) .
 - " والدليل على أنهم كانوا يتخذون المخاصرة في مجالسهم .. " (3) .
 - " ومما يدل على أن للعصا موقعا منهم ، وأنها تدور مع أكثر أمورهم " (4) .
 - " والقناع من سيما الرؤساء . والدليل على ذلك والشاهد الصادق " (5) .
 - " وأيضا إن حمل العصا والمخصرة دليل على التأهب للخطبة " (6) .
 - " والدليل على أن ذلك قد كان شائعا في الأسلاف المتبوعين " (7) .
 - " لقد كان في ذلك دليل على أنها لم تكن من الإماء اللخن " (8) .
 - " والدليل على أن أصل اللسان لليمن .. " (9) .
 - " وتدل على الصنعة .. " (10) .
 - " فالمضيرة لهم واسمها يدل على ذلك .. " (11) .
 - " ومما يدل على تعزز القوم في جاهليتهم وأنفتهم وشدة حميتهم " (12) .
 - " ليس فيه دليل على أن أهل اليمن خير من قريش في الحسب " (13) .
- من الملاحظ عدد المرات الذي تكررت كلمة الدليل في مختلف السياقات ، والتي كانت في كل شؤونها جاءت بمعنى الإثبات والبرهنة على الأمر التي جاءت في سياقه .
- وبالعودة إلى لسان العرب نجد أن معنى الدليل : " ما يستدل به . والدليل : الدال . وقد دلّه على الطريق يدلّه دلالة و دلالة ودلولة . والجمع أدلة " (14) .
- وفي أساس البلاغة أورد معنى الدليل ب: " دلّه على الطريق ، وهو دليل المفازة وهم أدلاؤها ، وأدلت الطريق : اهتديت إليه " (15) .

-
- (1) البيان التبيين ، ج 3 ، ص 13 .
 - (2) المصدر نفسه ، ج 3 ، ص 19 .
 - (3) المصدر نفسه ، ج 3 ، ص 27 .
 - (4) المصدر نفسه ، ج 3 ، ص 50 .
 - (5) المصدر نفسه ، ج 3 ، ص 67 .
 - (6) المصدر نفسه ، ج 3 ، ص 77 .
 - (7) المصدر نفسه ، ج 3 ، ص 78 .
 - (8) ابن قتيبة، رسالة العرب ، ص 371 .
 - (9) المصدر نفسه ، ص 374 .
 - (10) المصدر نفسه ، ص 376 .
 - (11) المصدر نفسه ، ص 388 .
 - (12) المصدر نفسه ، ص 394 .
 - (13) المصدر نفسه ، ص 396 .
 - (14) لسان العرب ، ج 5 ، ص 292 ، مادة (د ل ل) .
 - (15) الزمخشري ، أبو القاسم (1998) . أساس البلاغة ، تحقيق : محمد بابل عيون السود ، ط 1 ، منشورات محمد علي بيضون ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ج 1 ، ص 295 ، باب الدال ، (د ل ل) .

وعند الأصوليين له معنيان، " أحدهما أعمّ من الثاني مطلقاً، فالأول الأعم هو ما يمكن التوصل بصحيح النظر فيه إلى مطلوب خبري وهو يشتمل القطعي والظني، وهذا المعنى هو المعتبر عند الأكثر، والثاني الأخص هو ما يمكن التوصل بصحيح النظر فيه إلى العلم بمطلوب خبري وهذا يخص بالقطعي المسمى بالبرهان والظني يسمى أمانة " (1).

لقد كان اهتمام الجاحظ وابن قتيبة في هذه الكلمات المفتاحية لطبيعة الخطاب الذي يحتاج الدعم والتأييد لفكرة، أو دحض فكرة وإثبات ضعفها. وبالعودة إلى النصوص السابقة نلاحظ أن كلمة " الدليل " قد دخلت على حرف الجر (على) والذي يفيد الاستعلاء وهو من أكثر معانيه استعمالاً " ويدل على أن الاسم المجرور به قد وقع فوقه المعنى الذي قبل (على) وقوعاً حقيقياً مباشراً أو مجازياً " (2).

وبناء على ما سبق وارتباطه بالحجاج بقضية الشعوبية نجد أن كلمة الدليل في النصوص السابقة قد جاءت بالمعنى الاستعلائي الذي أفاد أن الرأي الذي يكون قبل حرف الجر (على) وهو ارتبط بكلمة (الدليل) يكون أعلى وأقدر وأظهر على مطاعن الشعوبية ضد العرب . وهناك كذلك من الكلمات جاءت تدل على البرهنة والإثبات، لكنها لم تكن مكررة كما هو الحال بكلمة (الدليل)، ومن هذه الكلمات: الحجة، فكان ذلك سبباً، من أجل ذلك، وعدل القول، وجملة القول ...

- " ولكنني أحببت أن أزداد بك حجة " (3) .

- " ومن أجل ذلك سميت الروم بني الأصفر " (4) .

- " وحجة من حججنا على أهل الكتاب من كتبهم " (5) .

- " وعدل القول في الشرف أن الناس لأب وأمّ " (6) .

- " فكان ذلك سبباً لاختلاف غرائزهم " (7) .

- " وجملة القول أنا لا نعرف الخطب إلا للعرب والفرس " (8) .

هذه بعض المفردات المعجمية، التي سرعان ما يقرأها المخاطب تقوده إلى التفكير والنظر في الموضوع المطروح، حتى تقوده إلى الإذعان والتأييد والتصديق للأمر الذي أراد المخاطب إيصاله.

(1) التهانوي ، محمد علي (1996) . موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم ، تقديم وإشراف : د .

رفيق العجم ، تحقيق : علي دحروج ، ط 1 ، مكتبة لبنان ناشرون ، بيروت ، ج 1 ، ص 793 .

(2) حسن ، عباس (د . ت) . النحو الوافي ، ط 3 ، دار المعارف ، مصر ج 2 ، ص 509 .

(3) ابن قتيبة، رسالة العرب، ص 401 .

(4) المصدر نفسه ، ص 372 .

(5) المصدر نفسه ، ص 374 .

(6) المصدر نفسه ، ص 376 .

(7) المصدر نفسه ، ص 377 .

(8) البيان والتبيين ، ج 3 ، ص 18 .

المبحث الثالث

التركيب الحجاجية

إن الأسلوب كما هو معروف يعبر عن الكيفية أو الطريقة التي تتجمع بها معطيات النص وطاقاتها التعبيرية في شكل متآلف تحكمه العلاقات وتربطه ببعضه البعض، وبذلك فإنه يدخل ضمن البنية والنص ككل؛ لأنه يعبر عن استخدام الكاتب للأدوات اللغوية التعبيرية من أجل تحقيق غايات أدبية⁽¹⁾، فيكون بذلك الأسلوب هو الاستخدام الشخصي من طرف الأديب، وتوظيفه للأدوات اللغوية التعبيرية التي تحقق غرضه من الخطاب ككل، وبهذا يظهر أن الأسلوب هو المفتاح الذي يمكن من خلاله الولوج إلى بنية النص وتحديد ملامحها، وبهذا يتضح علاقة البنية بالأسلوب.

ومن المعلوم إن لكل فن من الكلام أساليب تختص به وتميزه عن الآخر، ولا تقف عند الشعر و النثر الأدبي، وإنما تتسع فتشمل فنون المعرفة فلكل فن من الفنون أساليب تختص به وتوجد فيه، فالفقهاء لهم في تكييف اللغة طريق ونهج، والنحاة لهم في إجراء اللغة طريق ونهج، وهكذا المؤرخون والفلاسفة والبلاغيون.

و قبل أن نبحت عن دور التراكيب والأدوات اللغوية والبلاغية الحجاجية في قضية الشعوبية، نحاول أن نبين سبب اعتبار الخطابين حجاجيين، فقد جاء الرذآن - كتاب العصا / رسالة العرب - استجابة لاهتمام العرب البالغ في ذلك العصر بصناعة الكلام الذي كان يعد الوسيلة الوحيدة لنشر المبادئ السياسية والعقائد الدينية في وقت كثرت فيه النحل والملل، واشتد فيه الصراع بين زعمائها وأتباعها، وكان التنافس بينهم يتم بالمناظرات والخطب فلم يكن بذلك بدّ من وضع أصول للخطابة والمناظرة والحجاج تكون مرجعا للمحتاج.

والنص الذي بين يدينا يعدّ نصا حجاجيا، ذلك أن السبب وراء كتابته هو دحض حجج الشعوبية التي طعنت في ملكة العرب الخطابية، والغاية من هذين الخطابين إثبات ما للعرب من فصاحة وبيان، بتقديم كل الحجج التي تدعم هذا الادعاء.

فتقدم النصوص بذلك فكرة أساسية هي: تفوق الجنس العربي - الذي أيده الله بمعجزة القرآن - في قضية البيان على بقية الأجناس الأخرى، هذا التفوق لم يكن ليقبله ويقتنع به كل الناس، بمعنى أن حجج الجاحظ وابن قتيبة - في عصرهما وفي غير عصرهما - قد يقتنع بها البعض (المنحازون للجنس العربي) بدرجات متفاوتة أيضاً، وقد يرفضها البعض الآخر (المنحازون للشعوبية) بدرجات متفاوتة أيضاً، ولهؤلاء حججهم التي تؤيد زعمهم، وتعتبر سمة من سمات الخطاب الحجاجي، وجود مسألة يكون هناك مؤيدون ومعارضون بدرجات مختلفة.

ترد التراكيب البلاغية (الأساليب) الانشائية، التي تتناسب مع السياق الذي ترد فيه، وتخرج عن الأغراض الأصلية التي وضعت لها.

(1) ببيرجيرو (1985) . الأسلوب و الأسلوبية ، ترجمة : منذر عياشي ، مركز الانماء القومي ، ط 1 ، بيروت ، ص 9 .

الأساليب اللغوية

الجانب الحيوي للأساليب الإنشائية أسهم في جعلها أداة مرنة لها دور في نجاح الحجاج ، من خلال معطيات وأسس بنيتها التركيبية، سواء في العامل الصوتي والمتمثل في النغمة الصوتية، والعامل النحوي والصرفي، والعامل المعنوي البلاغي، فهذه الأساليب تنبني على الحوار والنقاش، ولهذا كان العامل مهماً في بنائها (1) .

كل هذه العوامل السابقة تؤدي في تظايرها دوراً حجاجياً فعالاً، وتزيد من حركته داخل النصوص؛ لأنها تفرض على المتلقي أن يكون طرفاً مشاركاً وفاعلاً في العملية الإقناعية بدل أن يكون متقبلاً للخطاب ومتلقياً له، وهذا ما جعل الأساليب الإنشائية أكثر فاعلية في الحجاج من الأساليب الخبرية، وسنركز هنا على ثلاثة عناصر مهمة هي : الاستفهام والأمر والنهي، مروراً ببعض الأساليب الأخرى .

لذلك جاءت النصوص الحجاجية، وفق أساليب متنوعة في دعم الأطروحة التي يدافع عنها ودفع الرأي المخالف الذي يدحضه وقد تراوحت بين صيغ صرفية ومؤشرات لغوية وأساليب لغوية، ومن الاستقراء الذي تم على النصوص، وجدت استعانة الجاحظ وابن قتيبة في تقديم حججهم بعدة أدوات وصيغ لغوية أذكر منها: الاستفهام البلاغي وأسلوب القصر، وأسلوب الشرط، وأسلوب النفي .

1. الاستفهام البلاغي :

وهو طلب الفهم، أي طلب العلم بشيء لم يكن معلوماً بواسطة أداة من أدواته، وهي : الهمزة، هل، من، ما، متى، أين، أيان، أئى، كيف، كم، أيّ (2) .

من خلال التعريف السابق نجد أن المقصود بالاستفهام هو الاستفهام الحقيقي، وهو سؤال الإنسان عما يجله ليعلمه، وإذا كان كذلك فإنه ينتظر ممن يسأله جواباً عن سؤاله.

و يعدّ الاستفهام من أنجع وأفضل أشكال الحجاج في الأفعال اللغوية، حيث يفتح مجالاً للحوار الذي يقوم على أسئلة وأجوبة ويترتب على ذلك الحجج المعارضة والحجج المؤيدة، وهذا هو الهدف من الحجاج والعملية الإقناعية ككل، فالحجاج بواسطة السؤال أو الاستفهام يكون أشد إقناعاً للمتلقي وأقوى حجة عليه، وخاصة الأسئلة التي تنتمي إلى الاستفهام التقريري لما تقتضيه من استلزام حوار (3).

(1) شيخ ، آمال (2010) . البنية الحجاجية في كتاب المقابسات لأبي حيان التوحيدي ، ص 124 .

(2) هارون، عبدالسلام (2001) . الأساليب الإنشائية في النحو العربي ، ط 5 ، مكتبة الخانكي ، القاهرة ، ص 18 .

(3) الشهري ، عبد الهادي بن ظافر (2004) . استراتيجيات الخطاب – مقارنة لغوية تداولية ، ص 484

المتكلم هو الذي يوجه الخطاب أو السؤال والصيغة التي يريد من المخاطب أن يكون عليها، إما مجيباً أو محاوراً أو محاججاً . ومن هنا تبرز أهمية السؤال أو المسألة من الناحية الحجاجية، إذ إن إثارة السؤال تولد بالضرورة نقاشاً وحواراً ومن ثم حجاجاً، وبهذا يعد من وسائل الإثارة ودفع الغير إلى إعلان موقفه من المحاور أو المسألة مع مراعاة السياق والمقام بطبيعة الحال " (1).

إن الاستفهام في الحجاج له دور مهم، وذلك من خلال لفت انتباه القارئ في عملية الاستدلال، وإشراكه في الموضوع من خلال ما يدور في النص من نقاشات وطروحات وأسئلة تحتاج إلى إجابات، و الحديث عن الاستفهام في معرض الرد على الشعبية وأهميته في البناء الحجاجي يطول ويتشعب، وذلك أن ابن قتيبة وظفه بشكل كبير، وهذا يدل على أن الاستفهام أحد المقومات التي بنى عليها ابن قتيبة حججه وأحد أركان الحجاج فيها .

ظهر الاستفهام في النصوص التي ترد على الشعبية على شكلين الأول : هو الاستفهام الذي يطرح من أجل الإجابة ، والثانية : هو الاستفهام الذي لا يحتاج إلى إجابة وإنما يطرح من أجل الاستفهام لإكساب النص رونقا وجمالا بيانيا ، ويكون شكليا .
ومن الأمثلة على الشكل الأول ، منها قول ابن قتيبة :

- هل من أحد ليس فيه عيب ؟ (2).

- بم أنت أعز العرب ؟ (3) .

- فكيف أنت في أهل بيتك وفي بدنك ؟ (4) .

- أهذا السابق فرسك ؟ (5) .

- هل كان اشتراها منكم ؟ (6) .

من خلال الأسئلة السابقة وغيرها كثير، تمثل استفسارات تحتاج لإجابات مقنعة لها، ولعل من أراد طرح هذه الأسئلة، يحتاج ويبحث عن الإجابة للمسألة التي أرادها، والتي يريد تبين غموضها، ويطلب بيانها من شخص أكثر منه علما ومعرفة.

أما الشكل الثاني فهو الذي يكون موجهاً من أحد الأطراف، وهذا الطرف هو الذي يحركه ومثال ذلك :

(1) الدريدي ، سامية (2008) . الحجاج في الشعر العربي القديم - من الجاهلية إلى القرن الأول الهجري / بنيته وأساليبه ، ص 141 .

(2) ابن قتيبة، رسالة العرب، ص 363 .

(3) المصدر نفسه، ص 367 .

(4) المصدر نفسه، ص 367 .

(5) المصدر نفسه ، ص 369 .

(6) المصدر نفسه، ص 370 .

- كانت العجم - رحمك الله- في ذلك الزمان طبق الأرض شرقا وغربا وبرأ وبحرا إلا محال معدّ واليمن أفكل هؤلاء أشراف ؟ (1) .
- فأين الوضعاء والأدنياء والكساحون والحجّامون والدبّاغون والخمّارون والرعاع والمهان ؟(2)
- وهل كان ذوو الشرف في جملة الناس إلا كاللمعة في جلد البعير ؟ (3) .
- وأين ذراريهم وأعقابهم أدرجوا جميعا فلم يبق منهم أحد وبقي أبناء الملوك والأشراف ؟ (4) .
- ومن أتعب قلباً وأنصب فكراً ممن أراد أن يجعل الحسنة سيئة ؟ (5) .
- فما ظنك بما سُئِرَ ورين من أمره ؟ (6) .
- أيهما أشدّ عاراً وأقبح سماعاً ؟ (7) .

من الملاحظ في الأسئلة السابقة نجد أن ابن قتيبة استطاع محاوراة الأطراف الثانية من خلال طرح أسئلة مختلفة، والتي كان هدفها تحريك جميع الأطراف للإجابة عن أسئلته، والاقتناع بما جاء به من طروحات وآراء وأفكار، لأنه أراد نصحهم وإرشادهم وتنوير عقولهم، واستخدام هذه الطريقة أي الاستفهام للتلطف في طرح العلم، فلو أنه طرح عليهم الفكرة المباشرة لرفض بعضهم ما كان يقول، ولكنه جعلهم يبحثون ويتفكرون في استفهاماته، وبهذا يصل إلى هدفه، وهو إقناع كل الأطراف المتحاوراة، وجعلها تقتنع بذاتها دون الحاجة إلى إقناعها من الطرف الآخر.

و كذلك نجد أيضا أن هذا الشكل من الاستفهام يأخذ صورة شكلية فقط بهدف إشراك المتلقي في المحاوراة أو الخطاب وجلبه إلى الاستماع ومحاولة لفت الانتباه إلى الحديث، ولا يستطيع جلبه إلا في البحث عن الجواب بواسطة طرح الاستفهام، فهو يقوم أولا بجلبه بالسؤال ثم بمبادرته بشرح الأطروحة والتفصيل فيها، فلا يستطيع المتلقي إلا متابعتها وسماع ما يقوله، ومحاورته إن استطاع وإن لم يستطع فعليه الإذعان لما يسمعه ويلقى عليه .

ومما تجدر الإشارة إليه أن الغرض من الاستفهام أو التساؤل هو الذي يتحكم في مدى فاعلية ونجاعة الاستفهام حاجيا، فتختلف النجاعة باختلاف الغرض، فالاستفهام يمكن أن يكون هو ذاته الحجج كما أنه فعل حاجي بالقصد المضمّر فيه، وفق ما يقتضيه السياق خصوصا إذا كان المتكلم على علم بأن المتلقي لا يرفض تلك الحجج ويقلها، فهو يتدرج به إلى التنازل عن معتقداته شيئا فشيئا حتى يصل به إلى الإقناع بما يقوله ويلقيه عليه (8).

(1) ابن قتيبة، رسالة العرب ، ص 370 .

(2) المصدر نفسه ، ص 370 .

(3) المصدر نفسه ، ص 370 .

(4) المصدر نفسه ، ص 370 .

(5) المصدر نفسه، ص 364 .

(6) المصدر نفسه، ص 400 .

(7) المصدر نفسه، ص 400 .

(8) الشهري ، عبد الهادي بن ظافر (2004) . استراتيجيات الخطاب - مقارنة لغوية تداولية ، ص 485 .

فنجد المتكلم عندما يوجه سؤال أو استفهام وهو يعلم أن المتلقي له يعرف الإجابة، فهدفه ليس البحث عن الإجابة إنما هدفه هو محاولة إقناعه وحمله على الإذعان، ولكن في حال إذا كان المتلقي لا يعلم الإجابة فهنا التساؤل غرضه البحث عن الإجابة، أما إذا كان المتلقي يعلم الإجابة وينكرها فهو يحاول إيهام المتكلم وتشويش فكره، وجعله يضطرب ويقع في الخطأ، وبهذا يكون دور الاستفهام الحجاجي في كل المواضيع دوراً فعالاً لما له من مرونة وطواعية تساعد المتكلم على إقناع المتلقي .

2. الأمر و النفي .

بالرجوع إلى المعاجم نجد أن مادة (ن ف ي) تدور في اللغة حول معاني : الجحد، التثنية، الطرد، الإبعاد، التفريق، عدم الحدوث ⁽¹⁾، ومن الملاحظ أن المعنى الأخير هو أقربها للنفي بمعناه الاصطلاحي .

وفي الاصطلاح هو سلب معنى الجملة بإحدى أدوات النفي، وهو خلاف الإثبات والإيجاب ، فقوله تعالى ﴿ فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَمْرًا وَلَا نَهْرَهُمَا ﴾ نفي وسلب، ﴿ وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴾ (الإسراء:23) اثبات وإيجاب ⁽²⁾ .

ونجدها كذلك في كتب المعاجم والمصطلحات يدور معناها مقابل الإثبات والإيجاب ⁽³⁾ . استخدم ابن قتيبة أسلوب النفي بشكل واضح فأكثر من استخدامه لأسلوب الأمر ولعل ذلك يعود إلى أن أسلوب النفي له علاقة أكثر بمواضع الحجاج عكس أسلوب الأمر . و بالعودة إلى الرد على مطاعن الشعوبية نجد أن ابن قتيبة يوظف أسلوب النفي، ويقلل من توظيف الأمر، و يعود ذلك إلى أن الأمر فيه من الضغط والتكليف، والحجاج لا يعتمد على الضغط، وإنما يكون بالطواعية والاختيار، و أسلوب الأمر الذي ورد في معرض رده على الشعوبية وجدناه يتراوح بين النصح والإرشاد والتوجيه، وهو ما جعله يخرج عن غرضه الأساسي الطلب على وجه الحقيقة، لأن فيه نوعاً من الإلزام والضغط الذي يتنافى مع طبيعة الحجاج، وربما هذا السبب الذي دفع ابن قتيبة للعدول عنه إلا في بعض المواضع نجد منها :

- فانظر ما غناء من يقاثل على هذه الحال ⁽⁴⁾.
- واعلم أنه ليس يدعوني إلى ما تسمع من مقالتي ضعف أحسنه من نفسي ⁽⁵⁾.

(1) لسان العرب ، ج14 ، ص 329، مادة (ن ف ي) .

(2) العسكري ، أبو هلال (1989) . الصناعتين ، تحقيق : د مفيد قميحة ، ط 3 ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ص 456 .

(3) التهانوي ، محمد علي (1996) . موسوعة كشاف المصطلحات الفنون و العلوم ، تحقيق : علي دحروج ، ج 2 ، ص 1722 .

(4) ابن قتيبة ، رسالة العرب، ص 401 .

(5) المصدر نفسه، ص 401 .

فلو نظرت إلى الأمثلة وتأملتتها لوجدت أنها لا تتجاوز أن تكون أوامر أو طلب بهدف التفكير والتبصر والأخذ بما فيها ، وهكذا في معرض رده على الشعوبية لا يخرج فيها الأمر عن الأغراض التي سبق ذكرها من نصيح وإرشاد وتفكير وتأمل.

أما أسلوب النفي والنهي فلا يختلف كثيرا عن أسلوب الأمر إلا أن ابن قتيبة وظفه بشكل أكبر من الأمر، لأن فيه نوعا من الاختيار والحرية في قبول النهي أو الاعتراض عليه ومن الأمثلة التي جاءت على صيغة النفي والنهي ، ما يلي :

- " لا تعادوا نعم الله " (1) .
 - " وزجر على القبيح ولم يزدجر " (2) .
 - " ليس لأحد مثل عتاق العرب " (3) .
 - " وليس هو من ذلك في مراح ولا مغذى ولا مأوى " (4) .
 - " وليس كلّ أمة عند العرب لخاء " (5) .
 - " وليس كلّ أمة وكعاء، وإنما قيل .. " (6) .
 - " وليس أعجب من سرير كسرى وفخر العجم به وتصويرهم إياه في الصخور الصمّ وفي رعان الجبال " (7) .
- واستعمل الجاحظ أسلوب النفي في تقديم الحجج ، بمعنى أنه كان يقدم حججه في صيغة النفي ، وكان يهدف من وراء ذلك إلى التأكيد، وخير مثال على ذلك استخدام أسلوب النفي في الرد على الشعوبية بالاتهامات الموجهة للعرب وفي ذلك يقول :
- " قلنا : ليس فيما ذكرتم من هذه الأشعار دليل على أن العرب لا تقا تل بالليل " (8) .
 - " وأما ما ذكرهم للركب ، فقد أجمعوا على أن الركب كانت قديمة ، إلا أن ركب الحديد لم تكن في العرب إلا في أيام الأزارقة ، وكانت العرب لا تعود أنفسها إذا أرادت الركوب أن تضع أرجلها في الركب ، وإنما كانت تنزوا نزوا " (9) .

(1) ابن قتيبة ، رسالة العرب ، ص 362 .

(2) المصدر نفسه، ص 364 .

(3) المصدر نفسه ، ص 368 .

(4) المصدر نفسه، ص 369 .

(5) المصدر نفسه، ص 371 .

(6) المصدر نفسه، ص 371 .

(7) المصدر نفسه ، ص 368 .

(8) المصدر نفسه ، ص 13 .

(9) المصدر نفسه ، ص 15 .

- " وكانت العرب لا تدعُ اتخاذ الركاب للرحل فكيف تدع الركاب للسرّج ؟ ولكنهم كانوا وان اتخذوا الركب فإنهم كانوا لا يستعملونها إلا عندما لابدّ منه ، كراهة أن يتكلوا على بعض ما يورثهم الاسترخاء والتفخّ ويضاهئوا أصحاب الترفّة والنعمة " (1) .
- " وأما ما ذكروا من شأن رماح العرب فليس الأمر في ذلك على ما يتوهمون " (2) .
- " وجملّة القول أنا لا نعرف الخطب إلا للعرب والفرس . فأما الهند فإنما لهم معان مدونة، وكتب مخلدة، لا تضاف إلى رجل معروف، ولا إلى عالم موصوف .. " (3) .
- " ونحن لا نستطيع أن نعلم أن الرسائل التي بأيدي الناس للفرس، أنها صحيحة غير مصنوعة، وقديمة غير مولدة " (4) .
- " ثم اعلم أنك لم تر قوما قط أشقى من هذه الشعوبية، ولا أعدى على دينه، ولا أشد استهلاكاً لعرضه ، ولا أطول نصبا، ولا أقل غنما من أهل هذه النحلة " (5) .
- في هذا الكلام يؤكد الجاحظ شقاء الشعوبية، وعداءها لدينها، ويرى ذلك سبب رميهم العرب بكل تلك التهم. وهنا أيضا نلاحظ استعماله لصيغة التفضيل (أشقى، أعدى، أشد، أطول، أقل) .
- قال ابن قتيبة: " ولم أرَ في هذه الشعوبية أرسخ عداوة ولا أشد نصبا من السفلة والحشوة وأوباش النبط وأبناء أكرة القرى ، فأما أشراف العجم وذوو الأخطار منهم وأهل الديانة فيعرفون ما لهم وما عليهم، ويرون الشرف نسباً ثابتاً " (6) .
- في هذا الكلام يؤكد ابن قتيبة عداوة الشعوبية، وكرهها العرب والثقافة العربية، وهنا أيضا نلاحظ استعماله لصيغة التفضيل (أرسخ ، أشد) .
- هذه الأمثلة التي ساقها الجاحظ وابن قتيبة في معرض تفنيدهما لمطاعن الشعوبية نجدها يغلب عليها صيغة " ليس " . وما نلاحظه عليها أن دلالتها على النفي موجهة ، فأهمية النفي هنا تكمن في توجهه باتجاه مقاصد المتكلم وأهدافه ، فهو حين يقول : " وليس هو من ذلك في مراح ولا مغذى ولا مأوى " ، في معرض حديثه عن فخر أبناء فارس بسرير كسرى وتاجه وحريره وديباجه، يقول ابن قتيبة أن من يستفيد من الفخر من يكونون بجوار الحاكم وأبناء الذوات وأصحاب النفوذ والخاصة، أما عامة الناس فلا يستفيدون من ذلك لا بمراح ولا يستفيدون من الغذاء ولا من السكن، فهو ينفي الفائدة المتحصلة منهم ، فلم يفخروا بشيء غير مستفيدين منه! .

(1) ابن قتيبة ، رسالة العرب ، ص 16 .
 (2) البيان والتبيين، ج 3، ص 16 .
 (3) المصدر نفسه، ج 3 ، ص 18 .
 (4) المصدر نفسه، ج 3 ، ص 19 .
 (5) المصدر نفسه، ج 3 ، ص 19 .
 (6) ابن قتيبة، رسالة العرب، ص 363 .

ولعلنا نستطيع القول إن كلا من الأمر والنهي أسلوبان ذات أهمية وفاعلية في الحجاج، وقد وظفهما الجاحظ وابن قتيبة، ونجد أن كلاهما تمكنا من استثمار النفي والنهي في إبراز القوة الحجاجية في الردود على مطاعن الشعوبية، ولاشك في أن ذلك يعود على براعتهم ومقدرتهما الإقناعية و الحجاجية في إقناع الخصم وجعله يذعن لما يقول.

وبالإضافة إلى الأساليب السابقة، نجد أن ابن قتيبة قد وظف أسلوب التعجب ، كأن يقول:

- " ولم أرَ في هذه الشعوبية أرسخ عداوة ولا أشد نصبا للعرب من السفلة الحشوة وأوباش النبط وأبناء أكرة الكرى " (1).

- " وأعجب من هذا ادّعاؤهم إلى إسحاق بن إبراهيم - صلى الله عليهما وسلم - وفخرهم على العرب بأنه لسارة الحرة وأن اسماعيل أبو العرب لهاجر وهي أمة .. " (2).

- " ومن عجب أمرهم - أيضا - فخرهم على العرب بآدم بقول النبي - صلى الله عليه وسلم -: " لا تفضلوني عليه فإنما أنا حسنة من حسناته " ثم بالأنبياء وهم من العجم إلا أربعة نفر، هود ، وصالح، وشعيب ، ومحمد " (3).

- " والعجب عندي من قوم نحلّتهم الإسلام، ونبيهم محمد - صلى الله عليه وسلم - تتابعت الأخبار عنه بشيء أمر به أو نهى عنه، فيعارضون ذلك بالعيب والطعن من غير أن يعرفوا العلة، ولا أن يكون لهم في الإنكار له نفع، أو عليهم في الإقرار به ضرر " (4).

نرى أسلوب التعجب في الأمثلة السابقة، فهو هنا يتعجب من أمر، ليجعل المتلقي يشارك معه في الحوار والتعجب، ويستوقف القارئ لبيان سبب تعجب الكاتب فيحمله ذلك على القبول والاقتناع.

3. أسلوب الشرط :

من المعروف أن الكلمات التي تستعمل في الشرط إما حروف أو أسماء، ومن الواضح اعتماد الجاحظ وابن قتيبة على أدوات مختلفة منها : لو، لولا ، إذا ، متى ، لما.

- يقول الجاحظ : " ... وأنت متى أخذت بيد الشعبي فأدخلته بلاد الأعراب الخلف ، ومعدن الفصاحة التامة، ووقفته على شاعر مفلق، أو خطيب مصقع، علم أن الذي قلت هو الحق، وأبصر الشاهد عياناً ، هذا فرق بيننا وبينهم " (5).

أداة الشرط : متى .

جملة الشرط: أخذت بيد الشعبي فأدخلته بلاد الأعراب الخلف ...

(1) ابن قتيبة، رسالة العرب ، ص 363 .

(2) المصدر نفسه، ص 370 .

(3) المصدر نفسه، ص 373 .

(4) المصدر نفسه ، ص 391 .

(5)البيان والتبيين، ج3 ، ص 13 .

جملة جواب الشرط : علم أن الذي قلت هو الحق

استعملت فيه (متى) ، وحين استعمال هذه الأداة يتخذ الحجاج هذا الشكل :

متى _____ الحجة _____ النتيجة .

بمعنى أن الفكرة التي يريد الجاحظ تدعيمها، أو النتيجة التي يسعى إلى الوصول إليها تكون متأخرة. يرى الجاحظ أن الشعوبيين لو دخلوا إلى المناطق العربية التي لم يصل إليها اللحن والأخطاء لعلم وتيقن بالذي يقوله عن الخطابة والبلاغة العربية.

- يقول ابن قتيبة : " ولو كان كل من تعلم لساناً غير لسان قومه ونطق به خارجاً من نسبهم لوجب أن يكون كل من نطق بالعربية من العجم عربياً ... " (1) .
أداة الشرط : لو .

جملة الشرط : كان كل من تعلم لساناً غير لسان قومه .

جملة جواب الشرط : لوجب أن يكون كل من نطق بالعربية من العجم عربياً .

يمكن أن نقرأ هذا التعبير كما يأتي : العجمي بأصله حتى وإن تعلم العربية و أجادها ، يبقى كثيراً من الأمور لا يعلمها بسبب العادات والتقاليد والنسب .

الحجاج بني كما يأتي : لو _____ الحجة _____ النتيجة .

4. أسلوب الحصر :

و يدل على " تخصيص شيء بشيء بطريق مخصوص " (2) . منه ما تم بالنفي والاستثناء ، ومنه ما تم بأداة إنما .

- قال الجاحظ : " ولم يكلم الله موسى إلا من شجرة، وجعل أكبر آياته في عصاه، وهي من الشجر. ولم يمتحن الله جل وعزّ صبر آدم وحواء، وهما أصل هذا الخلق وأوله، إلا بشجرة. ولذلك قال: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ وجعل بيعة الرضوان تحت شجرة. وقال:

﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذُّهْنِ وَصَبِغٌ لِّلْأَكَلِينَ﴾ .

وسدرة المنتهى التي عندها جنة المأوى شجرة .

وشجرة سرّ تحتها سبعون نبياً لا تُعبَل ولا تسرف.

وحين اجتهد إبليس في الاحتيال لآدم وحواء عليهما السلام، لم يصرف الحيلة إلا إلى

الشجرة ، وقال : ﴿هَلْ أَدْرَاكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى﴾ (3) .

(1) ابن قتيبة، رسالة العرب ، ص 376 .

(2) أبو موسى ، محمد (1987) . دلالة التراكيب - دراسة بلاغية - ط 2 ، دار التضامن ، القاهرة ، ص 33.

(3) البيان والتبيين ، ج 3 ، ص 23 .

يبين الجاحظ أهمية العصا، وكرم أصلها وذكر منافعها كان أكثر هذه الحجج وأقواها، وربما لأن المطعن بخصوصها كان يتصل ببلاغة العرب وبيانهم، وهذا ما كان تاج العرب، ورمز اعتزازهم من جهة، ثم كان اتصال العصا وحملها بالبلاغة في الفنون المختلفة بالغ الاتصال بحجة القرآن، التي زادت من قوة بعث النبي المصطفى؛ لأن نفي البلاغة عن العرب نفي لتحدي القرآن لهم، وهو بصورة ما تشكيك فيه وفي الرسول المرسل ودينه، إذ يكون ارتباط ذلك بالدين وبالعقيدة الثابتة دافعا قويا للتفنيد من جهة ثانية، كما أن كون منطلق الشعوبية في مطاعنهم في العصا هو قضيب الرسول وعزته عزز احتجاج الجاحظ، وقوى عزيمته في التفنيد، واستعمل في تقديم هذه الحجج أسلوب قصر بالنفي والاستثناء.

- قال الجاحظ : " ... قال الله تبارك وتعالى : ﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ

الْمُبْرَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَمْسُكَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَبِي اللَّهِ رَبُّ الْعَالَمِينَ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تُهَلِكُ كَانَتْ جَانًّا وَلَىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَمْسُكُ أَقْبَلُ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْأَمِينِينَ ۖ فَبَارَكَ اللَّهُ تَعَالَىٰ كَمَا تَرَىٰ عَلَىٰ تِلْكَ الشَّجَرَةِ ، وبارك في تلك العصا، وإنما العصا جزء من الشجر "(1).

من مطاعن الشعوبية على العرب حملهم العصا، وقد أفرد الجاحظ بابا في البيان والتبيين أسماء باب العصا للرد على الشعوبية في هذه المسألة، وقد راح يبين فضل العصا وأهميتها ويروي فيها الأخبار، ومن بين ما احتج به في هذا المقام الكلام السابق ليثبت أن العصا مباركة، ويستشهد على ذلك بهذه الآيات الكريمة التي بارك الله فيها الشجرة بأن كلم نبيه موسى عليه السلام منها، وجعل الجاحظ الحجة على أن العصا مباركة بأن قصرها على أنها جزء من الشجر ، والجزء مبارك بمباركة الكل وهو المعنى الضمني الذي لم يذكره الجاحظ هنا ، وقدم هذه الحجة بعد إنما.

فالبناء كما يأتي:

النتيجة ____ (العصا مباركة)

أداة القصر ____ إنما

الحجة ____ (العصا جزء من الشجرة)

المعنى الضمني ____ (الجزء مبارك بمباركة الكل) .

(1)البيان والتبيين ، ج 3 ، ص 23 .

- قال ابن قتيبة : " ... وهذا شر الناس وليس من الناس صنف ، وإلا وفيه الخير والشر ، على ذلك أسست الدنيا وعليه درج الناس ، ولولا أحدهما ما عرف الآخر ، وإنما يُقضى بأغلب الأمر ويُحكم بأشهر الأخلاق ، وليس في ثلاثة من الشعراء أو أربعة ما هدر مكارم أخلاق آلاف من الناس وبدد صنعاءهم " (1) .

فالبناء كما يأتي:

النتيجة _____ (يُقضى بأغلب الأمر ويُحكم بأشهر الأخلاق).

أداة القصر _____ إنما.

الحجة _____ (وليس في ثلاثة من الشعراء أو أربعة ما هدر مكارم أخلاق آلاف من الناس وبدد صنعاءهم) .

تتوفر اللغة العربية على طاقات هائلة في ميدان الحجاج، وقد عرف الجاحظ وابن قتيبة كيف يوظفان هذه الثروة في الدفاع عن البيان العربي ودرء اتهامات الشعوبية. وقد حاولت من خلال هذه الأسطر القليلة لفت الانتباه إلى هذه الناحية فبينت كيف وظف الاستفهام البلاغي وأسلوب الشرط، وأسلوب النفي وأسلوب القصر، توظيفا تداوليا أسهم بشكل كبير في تحديد وجهة نصوصه الحجاجية وفي الوصول بالقارئ إلى درجة الاقتناع بصواب ما ذهب إليه .

(1) ابن قتيبة، رسالة العرب ، ص 385 .

المبحث الرابع

الروابط الحجاجية

عبارة عن علاقة لسانية تربط بين غرضين لغويين داخل القولة نفسها ⁽¹⁾ فيكون الرابط إذن هو المعيار الذي يضبط المقتضيات التي يمكن استخلاصها من القول ويحدد توجيهاته ، ويحد من التأويلات المختلفة .

ويعرف كذلك الرابط الحجاجي بأنه وحدة لغوية تصل بين ملفوظين أو أكثر تم سوقهما ضمن نفس الاستراتيجية الحجاجية ⁽²⁾.

ولا يمكن لأي نص أن يكتمل وتحقق الوحدة بداخله، إلا بجمع أجزاء النص ببعضها البعض ووجود انسجام وتماسك بين أجزائه لتحقيق بذلك وحدة النص.

ومن المعروف أن الحجاج يعتمد في دراسته على علاقة العناصر ببعضها البعض والروابط التي تربط الأجزاء وتصل المكونات ببعض، والتي تتعاون كلها للوصول إلى نص مترابط منسجم، وبالتالي نصل إلى الهدف المنشود وهو إقناع المتلقي بالموضوع المطروح .

ومن خلال ما سبق تعمل الروابط على ربط وتنسيق النص منسجماً في داخله ، مما ينتج عنه وحدة كلية ، وكذلك تعمل هذه الروابط على ربط الحجج بنتائج سواء بروابط ظاهرة أو مضمرة مما يترتب عليه اقناع المتلقي الذي هو هدف العملية الحجاجية.

وإذا كان يعد الخطاب اللغوي الإقناعي يخضع لقواعد اللغة، ويتمكن بذلك من تقديم الحجج واستنباطها واستقراءها عن طريق الروابط مثل:

ذلك أن، حيث، لهذا، ثم، أجد أن، أدى إلى، من جهة أخرى، لكن، بل، إذن، حتى، لا سيما، إذ، لأن، بما أن، مع ذلك، ربما، تقريباً، إنما،

فالروابط إذن هي أحد المؤشرات الحجاجية التي تسند معنى من المعاني إلى الأقوال التي يتلفظ بها المتكلم، وبها يوجه وجهة الحجاج بداية ونهاية ، افتتاحاً واختتاماً، لأن العلاقات بين القضايا والأحداث، إنما يعبر عنها على نحو خاص بواسطة مجموعة من العبارات من مختلف أنواع التراكيب، مما يمكن أن يطلق عليها هنا اسم الروابط الحجاجية.

وبعدّ موضوع الروابط التداولية موضوعاً أساسياً في تحديد بنية الخطاب لكونه آلية مهمة في عملية الربط داخل النسق الواحد، وقد اهتم العلماء بموضوع الروابط في اللغات الطبيعية، انطلاقاً من دورها في فهم الأبعاد الدلالية التي تؤدي دور القرائن في ترجيحها، كما ساهمت مرجعيتها في تقسيم أطراف الكلام بين قول منطوق ومقتضى مسكوت عنه، ولها وجودها في الكلام بمساهمة منطقية في ترتيب الأغراض التي تقتضيها الجملة ⁽³⁾.

(1) الرقبي ، رضوان (2011) . مجلة عالم الفكر ، العدد 2 ، المجلد 4 ، أكتوبر - ديسمبر ، ص 103 .

(2) علوي ، حافظ اسماعيلي (2010) . فريق البحث التونسي ، الحجاج مفهومه ومجالاته، ج 1 ، ص 437 .

(3) الرقبي، رضوان (2011) . مجلة عالم الفكر ، ص 103.

ويمكن تقسيم الروابط الحجاجية إلى ثلاثة أنواع :

- الربط النحوي التركيبي.
- الربط الدلالي.
- الربط التداولي.

فالربط النحوي: يتم فيه ربط موضوعات مثل الفاعل والمفعول إلى محمولاته، فيدخل في مجال هذه الروابط النحوية الإعراب المعمول فيه.

أما الربط الدلالي: فهو الذي يتم فيه عادة ربط الموضوعات إلى الفعل بواسطة الحرف بموجب دلالاته الخاصة.

أما الربط التداولي: فهو الذي يركز على العلاقة التي تربط الكل الدلالي التركيبي من جهة، ومتداول اللغة من جهة أخرى⁽¹⁾.

وهذه الروابط قد تكون لفظية واضحة، وقد تكون معنوية تفهم من السياق ضمناً.

وهكذا فإن القيمة الحجاجية لأي قول أو خطاب، يتم تحديده بواسطة الاتجاه الحجاجي الذي يكون إما صريحاً وإما مضمراً . فإذا كان القول مميزاً أي مشتملاً على بعض الروابط الحجاجية، فإن هذه الروابط تكون متضمنة لمجموعة من التعليمات والإشارات التي تتعلق بالطريقة التي يتم بها توجيه القول أو الخطاب نحو نتيجة محددة، وهي التي تمثل القصد الحقيقي للمتكلم، حتى إن لم تكن البنية التركيبية دالة عليها دلالة وضعية مباشرة، وهي التي يتم استقبالها من قبل المخاطب، ويؤولها قبل الاستجابة .

أما في حالة كون القول أو الخطاب غير مميز، فإن التعليمات المحددة للتوجيه الحجاجي تستنتج من ألفاظ الخطاب ومفرداته، بالإضافة إلى مقاصد المتكلم والسياق التخاطبي.

إن ما يساعد المخاطب إذن على إدراك التوجيه الحجاجي المتضمن في القول أو الخطاب هو مجموع المؤشرات أي الروابط الحجاجية والمعاني المضمرّة التي يتم إدراكها بواسطة معرفة العلاقات المشتركة بين المتخاطبين، ونوع العلاقة الاجتماعية بين المتكلم والمخاطب، إضافة إلى مقام التخاطب والمعرفة المشتركة بينهما.

هذا باختصار توضيح للروابط الحجاجية، والتي يمكن الاستفادة منها في تحليل النصوص الأدبية ، ليظهر قدرتها الإقناعية، وفعاليتها الخطابية على مستوى التواصل والممارسة الحجاجية. و سأحاول في هذا المبحث إظهار الروابط من خلال النصوص الحجاجية في قضية الشعوبية.

(1) الرقبي، رضوان (2011). مجلة عالم الفكر، ص 103

ومن الأمثلة على الروابط الحجاجية في الرد على مطاعن الشعوبية نجد ما يلي :

- " .. وأما ذكرهم للركب ، فقد أجمعوا على أن الركب كانت قديمة، إلا أن ركب الحديد لم تكن في العرب إلا في أيام الأزارقة ، وكانت العرب لا تعود أنفسها إذا أرادت الركوب أن تضع أرجلها في الركب، وإنما كانت تنزوا نزوا " (1) .

من أدوات السلم الحجاجي القصر باستعمال (إنما) " والسبب في إفادة إنما معنى القصر ، هو تضمينه معنى : ما وإلا ... ونجد أهل النحو يقولون: إنما تأتي إثباتاً لما يذكر بعدها ونفياً لما سواه " (2) .

أراد الجاحظ الانتصار للعرب ومحاجة العجم (الشعوبيين) برد ادعائهم بأن العرب لا تعرف السرج وكانت تركب الخيل من غير ركب . فرد مطعنهم بقوله : (وكانت العرب لا تعود أنفسها إذا أرادت الركوب أن تضع أرجلها في الركب، وإنما كانت تنزوا نزوا) .

أي أنه لم يكن معروفاً عند العرب؛ و لم تعتد على وضع رجليها في الركب، بل كانت تشد على الخيل من غير ركب، وفي هذا دلالة واضحة على تفننهم وإتقانهم وإجادتهم لذلك .

ومن المشاهد أن الجاحظ صنف حجه إلى أكثر من مستوى، وبالتالي إلى أكثر من قوة، أقواها هو ما بعد إنما.

ولو أردنا ترتيب الحجج من خلال النص السابق لرتبناها كما هو آت :

- 1 - الركب كانت قديمة ، إلا أن ركب الحديد لم تكن في العرب إلا في أيام الأزارقة.
 - 2 - وكانت العرب لا تعود أنفسها إذا أرادت الركوب أن تضع أرجلها في الركب.
 - 3 - إنما كانت تنزوا نزوا.
- ففي الحجة الأولى أورد أنه لم تظهر ركب الحديد عند العرب إلا في زمن متأخر(الدولة الأموية).

وبعد ذلك رفع مستوى الحجاج لحجة أقوى بأن العرب لم تتعود على وضع رجليها على الركب أثناء ركوبها الخيل.

وجعل أقوى الحجج ما حصر بعد (إنما) بأنهم كانوا يركبون ولا يعتمدون إلا على أنفسهم من غير استخدام أي وسيلة أخرى، وهذه أقوى الأدلة على قوتهم وتفننهم لهذه الصنعة.

فالرابط الحجاجي (إنما) تدخل بين الجمل (الحجج) وربطها ببعضها البعض ، حتى يرتب و يوصلنا إلى أقوى الحجج وأنقأها.

(1) البيان والتبيين ، ج 3 ، ص 15 .

(2) السكاكي ، أبو يعقوب (1987) . مفتاح العلوم ، ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه : نعيم زرزور ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط 2 ، ص 291 .

أما روابط التعارض الحجاجي فإنها تكون باستعمال (بل، لكن، مع ذلك)، فالتعارض الحجاجي يكون بالحجج التي تساق لمساندة نتيجتين متعارضتين، أي إن كل حجة تساند نتيجة هي نقيضة النتيجة التي تساندها الحجة الأخرى. فعندما نقول: (هذا الكتاب، لكنّ ثمنه باهظ) تكون النتيجة لا تشتريه إذن، إلا أن المتكلم يقدم الحجة الثانية باعتبارها الحجة الأقوى، وباعتبارها توجه القول أو الخطاب.

وبعد الرابط (لكنّ) من الروابط التي تستعمل للتعارض الحجاجي ، ويمكن لنا أن نتمثل ذلك في كتاب العصا للجاحظ الذي يرد فيها على الشعوبية قائلاً:

- " .. وكانت العرب لا تدع اتخاذ الركاب للرحل فكيف تدع الركاب للسرّج؟! ولكنهم كانوا وإن اتخذوا الركب فإنهم كانوا لا يستعملونها إلا عندما لا بد منه ، كراهة أن يتكلوا على بعض ما يورثهم الاسترخاء والتفخ، ويضاهئوا أصحاب الترفه والنعمه " (1).

فقوله : (وكانت العرب لا تدع اتخاذ الركاب للرحل فكيف تدع الركاب للسرّج؟!) مثل حجة ، وقوله الآخر : (كانوا وإن اتخذوا الركب فإنهم كانوا لا يستعملونها إلا عندما لا بد منه). مثل حجة أخرى متعارضة مع الأولى، كانت (لكن) نقطة الفصل بينهما. حتى إنه جعل اهتمامه على ما بعدها لقوته فدحضه من دون غيره، فقد ربطت لكن بين الجملتين ربطاً حجاجياً ، وجعلت الدليل الثاني أقوى حجاجياً من الأول.

من هنا فإن (لكن) متى توسطت دليلين باعتبارهما رابطاً حجاجياً جعلت الدليل الوارد بعدها أقوى من الدليل الذي سبقها فتكون للاحق الغلبة المطلقة بحيث يتمكن من توجيه القول بمجمله، فتكون النتيجة التي يقصد إليها هذا الدليل الثاني ويخدمها هي نتيجة القول " (2). ومن الروابط المدرجة للحجج الرابط الحجاجي (حتى)، فـ " الحجج المربوطة بواسطة هذا الرابط ينبغي أن تنتمي إلى فئة حجاجية واحدة ، أي إنها تخدم نتيجة واحدة ، ثم إن الحجة التي ترد بعد هذا الرابط تكون الأقوى، ولذلك فإن القول المشتمل على الأداة (حتى) لا يقبل الإبطال والتعارض الحجاجي " (3).

ومن أمثله في كتاب العرب أو الرد على الشعوبية لابن قتيبة، قائلاً:

" فلا ينبغي نسبي في العجم أن أدفعها عما تدعيه لها جهلتها، وأنتي أعنتها عما تقدم إليها سفلتها ، وأختصر القول وأقتصر على العيون والنكت ولا أعرض للأحاديث الطوال في خطب العرب وتعداد أيامها وفدات أشرافها على ملوك العجم ومقاماتها، فإن هذا وما أشبهه قد كثر في كتب الناس حتى أخلق وُدُس حتى ملّ، ولا سيما وأكثر هذه الأخبار لا طريق لها ولا ثقلت من الثقافات والمعروفين - أيضاً - تُخبر عن التكلف، وتدل على الصنعة وأرجو أن لا يطلع ذوو العقول وأهل النظر مني على إيثار هوى ، ولا تعمّد لتمويه ، وما أتبرأ بعده من العثرة والزلة إلا أن يوفقتني الله وما التوفيق إلا به " (4).

(1) البيان والتبيين ، ج 3 ، ص 16.

(2) الدريدي ، سامية (2008) . الحجاج في الشعر العربي القديم - من الجاهلية إلى القرن الأول الهجري / بنيته وأساليبه ، ص 347 .

(3) العزاوي ، أبو بكر (2006) . اللغة والحجاج ، العمدة في الطبع ، الدار البيضاء ، ص 73.

(4) ابن قتيبة ، رسالة العرب ، ص 376 .

فالرابط الحجاجي هنا قد ربط مجموعة من الحجج كما هو آتٍ :

الحجة الأولى (اختصار القول ، والاقتصار على العيون ، والابتعاد عن المطولات) .

الحجة الثانية (هذه المطولات كثرة في كتب الناس) .

فهذه الحجج الواردة قبل (حتى) تخدم نتيجة واحدة وهي (غير صالحة للاستعمال) .

نلاحظ أن (حتى) استعملت للربط بين حجتين لهما توجه حجاجي واحد، ويخدمان نتيجة واحدة، لكن الحجج التي جاءت قبل (حتى) كانت أسباب ومسببات لنتيجة متوقعة جاءت بعد (حتى) وهي (أخلق ودرُس)، وكذلك الأمر في (حتى) الثانية، كان ما قبلها سببا لما بعدها، أي كثرة الاستعمال والاستهلاك تورث الملل.

ولكثرة ما يحتمله النص من الروابط الحجاجية، ويخدم البلاغة الحجاجية، لا بأس أن نمثل كذلك من خلال نفس المثال السابق على رابط حجاجي آخر، وهو (لا سيما).

نجد أن تركيب (لا سيما) استحق بعناية بين علماء النحو، فمنهم من يستعملها بدون الواو (لاسيما)، ومنهم من يستعملها بدون (الواو) و (لا) لتقرأ بـ (سيما)، وتركيب (ولا سيما) تعبير معناه (مثل) فقولك: أحب أصدقائي ولاسيما محمد معناه: ولا مثل محمد، أي أن محبتك له تفوق محبتك لأصدقائك الآخرين.

قال سيبويه: " وسألت الخليل عن قول العرب: (ولاسيما زيد) فزعم أنه مثل زيد و (ما) لغو" (1).

وقد ذهب الأستاذ عباس حسن من المحدثين إلى أن من لغات (ولاسيما) الاستغناء عن الواو فقط، والاستغناء عنها وعن (لا) معاً، ومنها تخفيف الياء في كل لغاتها (2) .

ومما سبق لو أردنا أن نطبق الرابط الحجاجي على النص الأدبي وما سبقه من حجج ونتائج، وكل حجة تأتي تكون أقوى مما سبقها، وهكذا يرتب حججه من الضعيف إلى الأقوى ففي الحجة الأولى كان قوله: (اختصار القول، والاقتصار على العيون، والابتعاد عن المطولات) وزاد في الحجة الثانية قوله: (هذه المطولات كثرة في كتب الناس)، وزاد في الحجة الثالثة بعد (حتى) قوله : (أخلق ودرُس) بمعنى استهلك ومضى عليه الزمن، وكذلك زاد في الحجة الرابعة بعد (حتى) الثانية، قوله: (مُلّ) أي: وصل لدرجة الملل والاكتئاب، وها هو ذا يزيد في الحجة الخامسة، وكأنه يصعد درج الاقناع درجة حتى يصل للتغيير المراد في القناعة الفكرية التي يريد إيصالها من خلال هذا النص ، فجاء بالرابط الحجاجي (لاسيما) ليكون أقوى الروابط الحجاجية السابقة وذلك بقوله: (ولاسيما وأكثر هذه الأخبار لا طريق لها ولا نُقلت من النقّات والمعروفين - أيضاً - تُخبر عن التكلف ، وتدل على الصنعة ..) .

فقد استعمل هذا الرابط (لاسيما) ليساند الحجج التي قبلها كما هي موضحة سابقاً، وخدم نتيجة واحدة وهي (التشكيك والكذب في كتب العجم).

(1) سيبويه ، عمرو بن عثمان بن قنبر (1988) . الكتاب ، تحقيق : عبد السلام هارون ، ط 3 ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ج 2 ، ص 286 .

(2) حسن ، عباس (2008) . النحو الوافي مع ربطه بالأساليب الرفيعة والحياة اللغوية المتجددة ، ط 3 ، دار المعارف مصر ، ج 1 ، ص 364 .

المبحث الخامس

أنماط بلاغية وأسلوبية أساسية

التوكيد .

أسلوب لغوي يستعمل من أجل التقرير، أي جعل الشيء مقرراً في ذهن المخاطب ويفيد تقوية ما يفيد لفظ آخر (1).

ويؤتى بالتوكيد لأهداف ومقاصد كثيرة فمنها ما يكون لمجرد التقرير وتقوية المفهوم عند الإحساس بغفلة السامع، ومنها ما يكون للتقرير مع دفع توهم خلاف الظاهر، ومقصد آخر وهو التقرير مع دفع توهم عدم الشمول، وكذلك لإرادة انتقاش معناه في ذهن السامع (2).

و يعد التوكيد من الأساليب البلاغية التي استعملها العرب في مجادلاتهم مع خصومهم، لأنه وسيلة لتثبيت المعنى في النفوس، وإقراره في قلوب قارئيه حتى يصبح عقيدة من عقائدهم ، " إن التأكيد تمكين الشيء في النفس وتقوية أمره، وفائدته إزالة الشكوك، وإمطة الشبهات عما أنت بصده ، وهو دقيق المأخذ كثير الفوائد " (3).

ومن ثم عُدَّ التوكيد من أهم أساليب البلاغة في التأثير على الخصوم، وهذا ما يجعلهم يتيقنون بعد الشك ، ويؤمنون بعد الجحود والإنكار .

ومن ذلك يقول الجاحظ : " وجملة القول إنا لا نعرف الخطب إلا للعرب والفرس . فأما الهند فإنما لهم معان مدونة، وكتب مخلدة، لا تضاف إلى رجل معروف، ولا إلى عالم موصوف، وإنما هي كتب متوارثة، وآداب على وجه الدهر سائرة مذكورة .

ولليونانيين فلسفة وصناعة منطق، وكان صاحب المنطق نفسه بكّي اللسان، غير موصوف بالبيان، مع علمه بتمييز الكلام وتفصيله ومعانيه، وبخصائصه. وهم يزعمون أن جالينيوس كان أنطق الناس، ولم يذكره بالخطابة، ولا بهذا الجنس من البلاغة، وفي الفرس خطباء، إلا أن كل كلام للفرس، وكل معنى للعجم، فإنما هو عن طول فكرة وعن اجتهد رأي ، وطول خلوة، وعن مشاورة ومعاونة، وعن طول التفكير ودراسة الكتب، وحكاية الثاني علم الأول، وزيادة الثالث علم الثاني، حتى اجتمعت ثمار تلك الفكر عند آخرهم .

(1) التهانوي ، محمد علي (1996) . موسوعة كشف اصطلاحات الفنون والعلوم ، ج 1 ، ص 83 .

(2) الهاشمي ، احمد (1999) . جواهر البلاغة في المعاني و البيان و البديع ، ضبط وتدقيق : يوسف الصميلي ، ط 1 ، المكتبة العصرية ، بيروت ، ص 144

(3) ابن العلوي ، (2002) . الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الاعجاز ، ط 1 ، المكتبة العصرية ، بيروت ، ج 2 ، ص 176 .

وكل شيء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال، وكأنه إلهام، وليست هناك معاناة ولا مكابدة، ولا إجابة فكر ولا استعانة، وإنما هو أن يصرف وهمه إلى الكلام، وإلى زجر يوم الخصام، أو حين يمنح على رأس بئر، أو يحدو ببعير، أو عند المقارعة أو المناقلة، أو عند صراع أو في حرب، فما هو إلا أن يصرف وهمه إلى جملة المذهب، وإلى العمود الذي إليه يقصد، فتأتيه المعاني أرسالا، وتتثال عليه الألفاظ انثيالاً، ثم لا يقيده على نفسه، ولا يدرسه أحداً من ولده⁽¹⁾. يريد الجاحظ من خلال استخداماته التوكيد الانتصار للعرب، ودحض ادعاءات الشعوبية فيما يتعلق بفصاحة وبلاغة العرب.

الاستشهاد .

من المعروف بين أوساط الأدباء أنه لا يمكن لأي مؤلف أن يستغني عن ظاهرة الاستشهاد في كتاباته، وذلك من أجل الدلالة على صحة أقواله وإقناع متلقيه، وذلك باستعمال حجج وبراهين مختلفة سواء من القرآن الكريم أو الحديث النبوي الشريف، أو الشعر العربي. وموضوع دراستنا التي نحن في صدد تحليله حافل بالاستشهادات، إذ إن الجاحظ وابن قتيبة لا يذكران المسألة أو الفكرة إلا ويستشهدان عليها بمثال يشرحانه ويوضحانه، كما إنهما أيضاً قد راعيان ترتيب هذه الحجج وذلك انطلاقاً من قوتها الحجاجية، حيث استشهدا أولاً بالقرآن الكريم ثم الحديث النبوي الشريف، ثم عيون الشعر العربي، ثم أقوال العرب البلغاء. وهذا ما ذهب إليه عبد الهادي بن ظافر الشهري في كتابه " استراتيجيات الخطاب " عندما قال : " والملاحظ أن جميع هذه الشواهد والحجج الجاهزة كما يسميها أرسطو تنتسب إلى ترتيب معين بوصفها حججا جاهزة، وذلك حسب قوتها الحجاجية فيكون ترتيبها القرآن الكريم فالحديث الشريف وهكذا نزولاً " (2).

ومن بين الاستشهادات التي أوردها ابن قتيبة للتأكيد على الفكرة المرادة ، ما ذكره حول الخيل.

يقول ابن قتيبة : " وأما الفرس الورد فإن الخيل حصون العرب، ومنبت العز، وسلم المجد، وئمال العيال، وبها تدرك الثأر، وعليها تصيد الوحش ، وكانوا يؤثرونها على الأولاد باللبن ويشدونها بالأفنية للطلب والهرب، وقد كتى الله عنها بكتابه بالخير لما فيها من الخير، فقال حكاية عن نبيه سليمان - صلى الله عليه وسلم - : ﴿ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ

بِالْحِجَابِ ﴾ (ص:32)

يعني الخيل وبها كان شغل سليمان عن الصلاة حتى غربت الشمس .

(1) البيان والتبيين ، ج 3 ، ص 18 .

(2) الشهري ، عبد الهادي (2004) . استراتيجيات الخطاب - مقارنة لغوية تداولية - ، ص 544

وقال طفيل :

وللخيل أيام فمن يصطبر لها ويعرف لها أيامها الخير تعقب

وقال آخر :

ولقد علمت على توفي الردى أن الحصون الخيل لا مدر القرى
إني وجدت الخيل عزاً ظاهراً تنجي من الغمى ويكشفن الدجى
ويبتن بالثغر المخوف طلائعاً ويثبن للصعلوك جمّة ذي الغنا
باتوا بصائرهم على أكتافهم وبصيرتي يعدو بها وأي عتد

والبصيرة: الدم، يريد أنهم لم يدركوا الثأر فقتل الدماء على أكتافهم، وأنه قد أدرك ثأره على فرسه . وحدثني محمد بن عبيد قال : حدثني سفيان بن عيينة عن شبيب ابن غردقة عن عروة البارقي قال : سمعت النبي - صلى الله عليه وسلم - يقول : الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة ... " (1) .

من الملاحظ جمع ابن قتيبة الأدلة والبراهين التي تدعم وتقوي رأيه فيما يتعلق بالخيل فاستشهد أولاً بكتاب الله عز وجل، ثم انتقل للأبيات الشعرية، وبعدها انتقل للحديث النبوي الشريف، وبعدها انتقل إلى أقوال العرب الفصحاء في ذكر الخيل، وما ذلك كله إلا لتثبيت المعنى في نفس القارئ، واستمالته إلى رأيه وجعله يقتنع بما يريد من أفكار، حاول إبرازها من خلال جمع الأدلة والبراهين التي تدعم صحة قوله ورأيه.

الخلاصة

نخلص من هذا المبحث بذكر نمطين أساسيين هما: التوكيد والاستشهاد. وذكرنا في التوكيد أن الهدف والغاية من ورائه جلب انتباه السامع، وقد استخدمه العرب في مجادلتهم مع خصومهم حتى أنه استخدم في القرآن الكريم كأسلوب لتثبيت المعنى في النفوس. وأما الاستشهاد فالهدف منه الدلالة على صحة الأقوال وإقناع المتلقي، وذلك باستعمال حجج وبراهين مختلفة سواء من القرآن الكريم أو الحديث النبوي الشريف أو الشعر العربي.

(1) ابن قتيبة، رسالة العرب، ص 368 .

الخاتمة

في ختام هذه الدراسة المتمثلة في البحث عن بلاغة الحجج في النثر العباسي في قضية الشعوبية والتي حاولت من خلالها إظهار الحركة الشعوبية، وبنية العملية الحجاجية بالرد على مطاعن الشعوبية ضد العرب، باعتبار النصوص من هدفها الإقناع والإمتاع معا، فإنه يمكن استعراض النتائج المتوصل إليها على النحو الآتي:

إن الجاحظ وابن قتيبة في كتابيهما (العسا / رسالة العرب) قصدا الإقناع والإمتاع معا، ولولا ذلك لما تحملوا الجهد الكبير في نقل النقولات الشعرية والنثرية بالصورة الموجودة، ولم يتكلفا بعناء الصياغة والتأليف طوال المدة التي جمعا فيها تلك الحجج وأخرجها بتلك الصورة الجميلة البديعة، فكانت حججهم مقنعة وممتعة، وبذلك امتازت كتابتهما ببنية أسلوبية متميزة تؤثر الإقناع والإمتاع معها.

ولذلك انتقلت إلى صلب البحث وهو البنية الحجاجية في كتاب العسا / كتاب العرب، والتي وجهت ضد مزاعم الشعوبية ضد العرب، وبذلك وجدت أن الجاحظ وابن قتيبة قد استخدمتا عددا من الأساليب الحجاجية في بناء تلك الحجج للرد على مطاعن الشعوبية، و من بين تلك الحجج مراعاة أحوال المتلقي وظروفه، فأعطى المتلقي كامل الأهمية والاهتمام، فجعل حججه بسيطة سهلة ؛ لأن النص يهدف ككل خطاب إلى إقناع المتلقي بأهدافه ، ولكي يقتنع ذلك المتلقي عليه أن يفهم ما يقوله المتكلم، وبناء على هذا استوجب على المتكلم - الجاحظ / ابن قتيبة - أن يكونا مراعيين و عارفين بأي مقام يضعان المتلقي فيه، وقد ظهر جليا أن الجاحظ وابن قتيبة كانا عارفين بمقام من توجهت إليه الحجج سواء في عصرهما أم من بعده، فهما ركزا على المتلقي وعده محور العملية الإقناعية الحجاجية.

إن الأساليب الحجاجية التي وظفها الجاحظ وابن قتيبة، واستعانها في نصوصهم، تراوحت بين الأساليب اللغوية، البلاغية، والعقلية، كما هو معروف وكانت شائعة في عصرهما، ولأهمية قضية الشعوبية وأثرها على الثقافة العربية والإسلامية وكذلك لخطرها لم يستطع الكثير من الأدباء والبلغاء إيصالها إلى الناس، فحاول الجاحظ وابن قتيبة أن ينقلا تلك الأفكار والمفاهيم إلى الناس بصورة بسيطة ومفهومة.

كان الجاحظ وابن قتيبة حريصين كل الحرص في اختياراتهما اللغوية والتركيبية، إذ عمدا إلى اختيار اللفظ المناسب، ووضعاه في مكانه المناسب ليعبرا عن أغراضهما وغاياتهما، وكل هذا من أجل أن تحقق تلك الاختيارات المرجوة دون أن تربغ عنه، غير أن هذه الاختيارات والانزياحات لم تكن عشوائية بل مضبوطة، تصب في صلب الكتابة النثرية فالجاحظ وابن قتيبة يتسلسلان بالمتلقي من أول حججهم إلى آخرها بلغة عذبة يستطيع أن يفهمها ، وفي الآن ذاته يرى فيها رونق الجمال والبيان.

وإضافة إلى الأنواع و الأساليب الحجاجية التي وظفها الجاحظ وابن قتيبة، يظهر أنهما اهتمتا بنصوصهما، بحيث تشعر عند قراءتها كأنها نسيج مرتبطة مع بعضها البعض، بحيث تتفكك كل فكرة إلى الفكرة التي تليها بكل سلاسة وبساطة، وتوفرها داخل نصوص الحجاج، هذا ما يجعلها نصوصا مختلفة عن غيرها من النصوص الأخرى، فأهمية العلاقات ودورها في العملية الإقناعية، تكمن فيما توفره من طاقة وقدرة إقناعية وحجاجية، وعلى ربط المتكلم بالمتلقي، وإيصال الكلام له وجعله يقتنع بما يطرح عليه.

وأخيرا ومن خلال الاطلاع على نصوص الجاحظ وابن قتيبة في الرد على مطاعن الشعوبية، ظهرت قدرتهما على سبك ونسج تلك البنية الحجاجية للوصول إلى تحقيق أهدافهما من وراء كتابة تلك الحجج؛ أي تحقيق الإقناع بالأفكار والآراء ضد مزاعم الشعوبية، وكل ذلك لم يتحقق له إلا بالاعتماد على إستراتيجية الحجاج .

المصادر والمراجع

• القرآن الكريم

1. ابن الأثير، ضياء الدين (1998). **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر** ، ت :كامل محمد محمد عويضة، ط 1، دار الكتب العلمية ، بيروت .
2. الإدريسي، علي (2006). **في تأسيس الحجاج لدى مفكري الإسلام - الرسالة الجوابية** للحسن البصري على رسالة عبد الملك بن مروان نموذجاً، ضمن: **التحاجج طبيعته ومجالاته ووظائفه، تنسيق حمو النقاري، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 134، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط، المغرب.**
3. الأزهرى، أبو منصور محمد بن أحمد، **معجم تهذيب اللغة،** تحقيق عبد الحليم النجار وآخرون، ط 1، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، القاهرة.
4. إسماعيل، عز الدين (1968). **الأسس الجمالية في النقد العربي** ، د . ط ، دار الفكر العربي، القاهرة .
5. إسماعيل، عز الدين (1972). **الشعر العربي المعاصر، قضاياها وظواهره الفنية والمعنوية .** ط2 ، دار العودة ودار الثقافة - بيروت .
6. أمين، أحمد (1997). **ضحى الإسلام** ، ط 1، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر.
7. أنيس ، إبراهيم (د ت) . **الأصوات اللغوية** ، د . ط ، مكتبة نهضة مصر ، القاهرة .
8. بروتون ، فيليب ، جيل جوتييه (2011) . **تاريخ نظريات الحجاج** ، ترجمة : محمد صالح الغامدي ، ط1، مطابع جامعة عبدالعزيز ،السعودية.
9. ببيرجيرو (1985). **الأسلوب و الأسلوبية** ، ترجمة : منذر عياشي ، مركز الانماء القومي ، ط 1، بيروت.
10. التهانوي، محمد علي (1996). **موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم،** تقديم وإشراف: د. رفيق العجم، تحقيق : علي دحروج ، ط 1 ، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت.
11. ابن تيمية، ابو العباس تقي الدين أحمد (2010) . **تفسير سورة الاخلاص،** تحقيق طه يوسف شاهين، د ط،، دار الطباعة المحمدية، القاهرة.
12. الجاحظ، عمرو بن بحر(2010)، **البيان والتبيين** ، تحقيق وشرح عبد السلام هارون، ط1 ، القاهرة ، مكتبة ابن سينا للنشر والتوزيع .

13. الجارم، علي و مصطفى أمين (2010) . البلاغة الواضحة، ط 1 ، مكتبة البشري، كراتشي - باكستان.
14. الجرجاني، علي بن محمد الشريف الجرجاني، (1992). التعريفات، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار اللسان العربي، بيروت.
15. جمال الدين، مصطفى، (1974). الإيقاع في الشعر العربي من البيت إلى التفعيلة ، ط 2، مطبعة النعمان، النجف.
16. ابن الجوزي، (2008) . صحيح البخاري مع كشف المشكل، حققه ورتبه وفهرسه مصطفى الذهبي، د ط، دار الحديث، القاهرة، كتاب الطلاق، باب إذا عرّض بنفي الولد، حديث رقم 5305.
17. الجوهري، اسماعيل بن حماد، (1979). الصحاح (تاج اللغة وصحاح العربية)، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، ط 2، دار العلم للملايين، بيروت.
18. الجيّار، مدحت (1995) . موسيقى الشعر العربي - قضايا ومشكلات ، ط 3 ، دار المعارف ، القاهرة .
19. حجاب، محمد نبيه (1961) . مظاهر الشعبية في الأدب العربي حتى نهاية القرن الثالث الهجري، ط 1، مكتبة نهضة مصر، القاهرة.
20. ابن حزم الأندلسي، (1987). رسائل ابن حزم الأندلسي، تحقيق إحسان عباس، ط2، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت.
21. حسن، عباس (2008) . النحو الوافي مع ربطه بالأساليب الرفيعة والحياة اللغوية المتجددة ، ط 3 ، دار المعارف مصر.
22. حسين، طه، (1996). في الشعر الجاهلي، تقديم عبد المنعم تليمة، ط3، دار النهر للنشر والتوزيع، القاهرة.
23. حماشة، صابر (2008) . التداوليّة والحجاج : مداخل ونصوص، ط 1، صفحات للدراسات والنشر، سورية - دمشق.
24. الدريدي، سامية (2008) . الحجاج في الشعر العربي القديم - من الجاهلية إلى القرن الأول الهجري / بنيته وأساليبه، عالم الكتب الحديث، جدارا للكتاب العالمي للنشر والتوزيع، الأردن.
25. الدهري، أمينة (2011) . الحجاج وبناء الخطاب في ضوء البلاغة الجديدة، ط 1، شركة النشر ولتوزيع المدارس، الدار البيضاء.

26. الدوري ، عبد العزيز (1981). **الجزور التاريخية للشعبوية**، ط 3، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت.
27. الزبيدي، السيد محمد مرتضى الحسيني الزبيدي، (1969). **تاج العروس من جواهر القاموس**، تحقيق : مصطفى حجازي، مطبعة حكومة الكويت.
28. الزمخشري، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري، ت 538 هـ، (1998). **أساس البلاغة**، تحقيق : محمد باسل عيون السود، ط 1، منشورات دار الكتب العلمية، بيروت.
29. الزبيدي، توفيق (1987) . **مفهوم الأدبية في التراث العربي**، المطبعة العصرية ، تونس .
30. السجلماسي ، ابو محمد القاسم (1980). **المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع** ، ت : علال الغازي ، ط 1 ، مكتبة المعارف، المغرب .
31. السرخسي، محمد بن أحمد بن أبي سهل، (1993). **أصول السرخسي**، تحقيق أبو الوفا الأفغاني، ط 1، دار الكتاب العلمية، بيروت.
32. السكاكي ، أبو يعقوب (1987) . **مفتاح العلوم** ، ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه : نعيم زرزور ، ط 2، دار الكتب العلمية ، بيروت.
33. سلمان، علي محمد علي (2010) . **كتابة الجاحظ في ضوء نظريات الحجاج – رسائله** نموذجاً، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت.
34. سيبويه، عمرو بن عثمان بن قنبر (1988) . **الكتاب**، تحقيق : عبد السلام هارون ، ط 3 ، مكتبة الخانجي ، القاهرة.
35. السيد عبد ربه، فوزي (2005) . **المقاييس البلاغية عند الجاحظ في البيان والتبيين**، د . ط، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة.
36. ابن سينا، رسالة أسباب حدوث الحرف، تحقيق محمد حسان الطيان ويحيى مير علم ، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق.
37. الشبعان، علي (2010) . **الحجاج والحقيقة وآفاق التأويل**، ط 1، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت.
38. الشهري ، عبد الهادي بن ظافر (2004). **استراتيجيات الخطاب – مقارنة لغوية تداولية** ، دار الكتاب الجديد المتحدة ، بيروت.
39. الشهري، عبد الهادي بن ظافر (2010). **آليات الحجاج وأدواته** ، ضمن كتاب : الحجاج مفهومه ومجالاته.

40. صمود، حمادي (1998) . أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانية، تونس، كلية الآداب منوبة، سلسلة آداب، مجلد 39.
41. صولة، عبدالله (2001) . الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية ، د ط ، جامعة منوبة ، منشورات كلية الآداب ، منوبة.
42. صولة، عبدالله (2011). في نظريات الحجاج : دراسة وتطبيق، ط 1، مسكيلياني للنشر والتوزيع، تونس.
43. ضيف، شوقي، البلاغة تطور وتاريخ، ط 9 ، دار المعارف، القاهرة.
44. الطرابلسي ، محمد الهادي (1981) . خصائص الأسلوب في الشوقيات ، منشورات الجامعة التونسية ، مجلد ع 20.
45. عادل ، عبد اللطيف (2013) ، بلاغة الاقناع في المناظرة ، ط 1 ، منشورات ضفاف ، بيروت .
46. عبد الحميد، محمد محي الدين (2006) . رسالة الأدب في علم آداب البحث والمناظرة ، ط 1 ، دار الطلائع للنشر والتوزيع، القاهرة.
47. عبد الرحمن، طه (2000) . في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء.
48. عبد المجيد، جميل (2002). البلاغة و الاتصال، ط 1، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة.
49. العبد، محمد (2005). النص والخطاب والاتصال، ط 1، الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي، القاهرة.
50. أبو عبيد القاسم ،ابن سلام، (1977) . غريب الحديث ، المحقق : عبدالله الجبوري ، وزارة الأوقاف العراقية ، بغداد.
51. العجيمي :محمد الناصر (1998) . النقد العربي الحديث ومدارس النقد الغربية ، ط 1 ، دار محمد علي الحامي – صفاقس كلية . الآداب والعلوم الإنسانية – سوسة ، تونس.
52. العزاوي، أبو بكر (2006). اللغة والحجاج، ط 1، العمدة في الطبع، الدار البيضاء، المغرب.
53. عشير، عبد السلام (2006) . عندما نتواصل نغير: مقاربة تداولية معرفية لآليات التواصل والحجاج، ط 1، افريقيا للنشر، الدار البيضاء.
54. ابن العلوي، (2002). الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الاعجاز ، ط 1 ، المكتبة العصرية ، بيروت.

55. علوي ، حافظ إسماعيلي (2010). **الحجاج مفهومه ومجالاته** ، ط 1 ، عالم الكتب الحديث ، اربد - الأردن.
56. العمري ، محمد (2002) . **في بلاغة الخطاب الاقناعي - مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية في القرن الأول نموذجاً** ، ط 1 ، افريقيا الشرق ، الدار البيضاء.
57. الفراهيدي، الخليل بن أحمد (1981) . **كتاب العين**، تحقيق :د.مهدي المخزومي ود.إبراهيم السامرائي - دار الرشيد للنشر، بغداد.
58. فضل، صلاح (1997). **نظرية البنائية في النقد الأدبي**، ط3، منشورات الأفاق الجديدة، بيروت.
59. القارصي ، محمد علي (د . ت) . **البلاغة والحجاج من خلال نظرية المساءلة لميشال ميار، ضمن كتاب أهم نظريات الحجاج**، تحت إشراف حمادي صمود.
60. قاسم ، عدنان حسن (2001). **الاتجاه الأسلوبى النبوي في نقد الشعر العربى**، د ط ، الدار العربية للنشر والتوزيع، مدينة نصر.
61. ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم (2009) . **رسالة العرب، في رسائل البلغاء**، جمعه : محمد كرد علي، ط 1، دار الكتاب الاسلامي، القاهرة.
62. ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم (1973). **تأويل مشكل القرآن**، شرحه ونشره السيد أحمد صقر، دار التراث، القاهرة، ط 11.
63. ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم (1996) . **عيون الأخبار** ، المحقق: لجنة بدار الكتب المصرية ، ط 2 ، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة .
64. ابن مالك ، أبو عبد الله جمال الدين (1967). **تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد** ، المحقق : محمد كامل بركات ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ، بيروت ، ط 1 .
65. مرتاض، عبد الملك (1983). **النص من أين وإلى أين ؟، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر**.
66. المسعدي ، محمود (1996). **الإيقاع في السجع العربي** ، د . ط ، نشر عبد الكريم بن عبدالله ، تونس.
67. بو ملحم، علي (1988). **المناحي الفلسفية عند الجاحظ**، ط 2، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت.
68. مطلوب، أحمد، (1983). **معجم المصطلحات البلاغية وتطورها**، ط1، المجمع العلمي العراقي، بغداد.
69. ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور، (2005) . **لسان العرب**، ط 4، دار صادر، بيروت - لبنان.
70. أبو موسى، محمد (1987) . **دلالة التراكيب - دراسة بلاغية** - ط 2 ، دار التضامن ، القاهرة.

71. النعمي ، حسن بن أحمد (2009) الأدب والدفاع عن الهوية : موقف الجاحظ من الشعبية أنموذجاً ، د . ط ، مجلة الجمعية العلمية السعودية للغة العربية ، السعودية .
72. النويري، محمد (2003). البلاغة وثقافة الفحولة ، دراسة في كتاب العصا / وحدة البحث في تحليل الخطاب، منشورات كلية الآداب، منوبة، د ط.
73. هارون ، عبدالسلام (2001). الأساليب الانشائية في النحو العربي ، ط 5 ، مكتبة الخانكي، القاهرة.
74. الهاشمي، احمد (1999). جواهر البلاغة في المعاني و البيان و البديع ، ضبط وتدقيق : يوسف الصميلي، ط 1، المكتبة العصرية ، بيروت .

• الرسائل العلمية

75. آمال ، شيخ (2011) . البنية الحجاجية في كتاب المقابسات لأبي حيان التوحيدي ، رسالة ماجستير ، جامعة السيلة .
76. بولوطه، حسين (2009) . الحجاج في الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي، رسالة ماجستير، جامعة لحاج لخضر، باتنة، الجزائر.
77. جغام ، ليلي (2013) . الحجاج في كتاب البيان والتبيين للجاحظ ، أطروحة دكتوراه ، جامعة محمد مخيضر ، بسكرة ، الجزائر .
78. غديري ، نور الهدى (2011) . تجليات الأيدولوجية في كتاب العرب لابن قتيبة - مقارنة موضوعية فنية - رسالة ماجستير ، جامعة الحاج لخضر ، باتنة ، الجزائر .
79. محفوظي ، سليمة (2010) . وسائل الإقناع في خطبة طارق بن زياد (دراسة تحليلية في ضوء نظرية الحجاج) ، رسالة ماجستير ، جامعة الحاج لخضر ، الجزائر .

• الدوريات

80. الرقبي ، د . رضوان (2011) . مجلة عالم الفكر، العدد 2، المجلد 4 ، أكتوبر- ديسمبر .
81. سرحان، هيثم (2011) . الحجاج عند الجاحظ، بحث في المرجعيات والنصيات والآليات، المجلة العربية للعلوم الانسانية، العدد 115، السنة 29، مجلس النشر العلمي، جامعة الكويت.
82. الصكر، حاتم (1993). بحث في الإيقاع والإيقاع الداخلي في قصيدة النثر خاصة ، مجلة الأقاليم ، العدد 5.
83. عبيد الله، محمد (2014). الوعي بالشفاهية والكتابية عند العرب - قراءة في مصنفات الجاحظ -، مجلة حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، الكويت، الحولية : 34، الرسالة : 399 .
84. القارصي، محمد علي (2006) . الرمز والمطلق في رد الجاحظ على الشعبية ، د . ط، حوليات الجامعة التونسية ، تونس .

Abstract

The Eloquence of Polemics in Arabic Prose during the Abbasid Period (Chauvinism)

Done by

Yousef Muhammad Abdullah Abdo

Supervised by

Dr. Muhammad Hussain Obaid Allah

Polemics is a device to work on and improve texts language. Both Polemics and the language appeared almost at the same time due to its need. This was considered an art on its own.

One of the major conflicts that appeared in the “Al’abasi” old prose –the days of intellectual and religious conflicts- was the conflict of Chauvinism. Linguistics of the language tried to use this methodology of Chauvinism to prove their own perspective.

This research consisted of an introduction, two chapters and a conclusion. In the introduction, I defined the methodology according to the linguistics and its evolution. Also, I presented the origins of Chauvinism and the most valid allegations against Arabs. I mentioned two teams to discuss Polemics, the first one was Al-Jahiz and Ibn Qutaybah, and the other one was Chauvinism.

In the first chapter, I introduced the general structure and the main methods for Polemics in the matter of Chauvinism. The process of proving was by taking evidence from Al-Jahiz book, Al’assa. The next step was to talk about the procedures of Polemics that was used to dilute the allegations against Arabs. I concluded the chapter by writing the most used methods in Polemics and analyzed each one of the mentioned methods.

As for the second chapter, I started by writing the analytical study in Polemics. One of the subjects was the different studies of linguistics in Polemics. I ended the research with a summary of the final results.

Key words: prose, Polemics ,Al-Jahiz, Ibn Qutaybah, Chauvinism, Al’abasi